الدكتور على جمعة
والتصوف

التصوف هو الدين

إعداد ودراسة فضيلة الشيخ
على الطهطاوى
رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

دار الروضة
طبع ـ نشر ـ توزيع

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ١٤٦١٤ / ٢٠١٣

الترقيم الدولى/ ٣-٠٥٤-٤٨٥-٩٧٧-٩٧٧

دار الروضة
للنشر والتوزيع

دار الروضة
حائزة على شهادات تقدير
من المعارض الدولية والعالمية
• عضو اتحاد الناشرين المصريين والعرب •
• عضو الاتحاد الإسلامى العالمى للدعوة والإعلام •

٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

ت: ٢٥٠٦٦٨٨٤ - ٠١٢٢٣٦٠٨٩٩٥
٠١١٤٩٣٩١٨٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

على جمعة محمد عبد الوهاب (3 مارس 1952 بمحافظة بني سويف) شغل منصب مفتي الديار المصرية ما بين عامي 2003 و2013 . ويُعدّ بحسب دراسة أشرف عليها باحثون ومختصون دوليون من بين أكثر خمسين شخصية مسلمة تأثيرًا في العالم.[1] تم منحه يوم 19 يوليو 2011 "درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب الإنسانية" من قِبل جامعة ليفربول باعتباره «أحد أهم الشخصيات العالمية في نشر التسامح والتفاهم بين الأديان على مستوى العالم»

المؤهلات

نال الدكتوراه في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر عام 1988م مع مرتبة الشرف الأولى.

وقد حصل قبل ذلك على الماجستير في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر عام 1985م بتقدير ممتاز.

تحصّل كذلك على الإجازة العالية (ليسانس) من كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر عام 1979م.

وكان قد حصل على بكالوريوس التجارة من جامعة عين شمس عام 1973م

الإجازات العلمية الدينية

حاصل على أعلى الأسانيد في العلوم الشرعية، وإجازات من علماء في العلوم الشرعية، في الفقه والحديث والأصول وعلوم العربية[4] التحق فضيلة الإمام بجامعة الأزهر الشريف، وبدأ تلقي العلم على كبار المشايخ ممن سنذكرهم في مشايخه، وحفظ

كثيرًا من المتـون المقـررة في الأزهـر الـشريف، فحفـظ «تحفـة الأطفـال» في التجويـد، و«ألفية ابن مالك» في النحو، و«الرحبيـة» في المواريـث، و«مـتن أبي شـجاع» في الفقـه الشافعي، و«المنظومة البيقونية» في علم الحديث، وغيرها كثير من الـضوابط والفوائـد التي أثرت تأثيرا واضـحا في علمـه واستحـضاره. وتخرَّج في جامعـة الأزهـر في سـنة 1979 م، ثم أكمل مرحلة الدراسات العليا في تخصص أصول الفقه في كليـة الـشريعة والقانون، حتى نال درجة التخصص (الماجستير) في سـنة 1985 م بدرجـة ممتـاز، ثـم حصل على درجة العالمية (الدكتوراه) بمرتبة الـشرف الأولى سـنة 1988 م. وقـد قـال فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحميد ميهـوب أسـتاذ الـشريعة بكليـة الحقـوق، وأحـد المناقشين في رسالة (الدكتوراه) لفضيلة الـشيخ عـلي جمعـة، إنـه قـد خلـص في حياتـه بثلاث رسائل استوفت المنهج العلمي، منها رسالة الأستاذ الدكتور علي جمعة. والثانية للدكتور أسامة كحيل، والثالثة للدكتور علي بن سعد بن صالح الضويحي.

الأنشطة العلمية

ناقش وأشرف على أكثر من سبعين رسالة علمية في جامعات شتى.

اشترك في وضع مناهج كلية الـشريعة بـسلطنة عـمان حتـى افتتـاح الكليـة المذكورة وشارك في الافتتاح كعضو مؤسس.

اشـترك في وضـع منـاهج جامعـة العلـوم الإسـلامية والاجتماعيـة SISS بواشنطن.

مثّل الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيـا وشـارك في محاضراتهـا الثقافيـة وفي تقييم الأساتذة المساعدين والمدرسين في لجان ترنياتهم.

عين مشرفا مشاركا بجامعة أكسفورد لمنطقة الشرق الأوسط في الدراسات الإسلامية والعربية.

شـارك كخبـير بمجمـع اللغـة العربيـة في إعـداد موسـوعة مـصطلحات الأصول الصادرة عن المجمع. وهو خبير به حتى الآن.

عين مشرفا مشاركا بجامعة هارفارد بمصر بقسم الدراسات الشرقية.

شارك في فحص النتاج العلمي للترقية إلى درجة أستاذ وأستاذ مشارك لكثير من جامعات العالم.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى لمؤسسة طابة بأبو ظبي.

قام بإحياء دروس العلم في الجامع الأزهر على الطريقة القديمة (المشيخية) فشرح كتب الفقه والأصول والحديث والتفسير واللغة

المشرف العام على الجامع الأزهر الشريف وعلى دروسه العلمية

قام بتربية وتخريج عدد من العلماء الذين لهم دور في نشر علوم الشريعة مثل : الشيخ الشهيد عماد عفت - الشيخ أسامة السيد الأزهرى - الشيخ عمرو الوردانى - الشيخ سيد شلتوت - الشيخ جمال فاروق - الشيخ يسرى رشدى - الشيخ محمد وسام عباس - الشيخ عصام أنس الزفتاوي - الشيخ أحمد ممدوح وغيرهم ممن لا يسع المقام ذكرهم في كافة أقطار العالم)

حضر عددا من المؤتمرات العلمية (أكثر من مائة مؤتمر علمي)، وقدم بها أبحاثاً في أكثر من ثلاثين دولة في العالم.

***

نشأة ونسبة الصوفية

مما لا يختلف فيه: أن الفكر الصوفي حادث في الإسلام..!!.

فقد مر عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وجيل الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين، وتابعيهم رحمهم الله، دون أن يكون لهذا الفكر أثر واضح، حتى حدث وظهر في نهاية القرن الثاني، والصوفية يقرون بهذا، لكن من جهة اللفظ دون المعنى، يقول النواوي:

"فأما كلمة التصوف، فقد أجمع الكاتبون في هذا المقام على: أنها من الكلمات الاصطلاحية، التي طرأت في أواخر القرن الثاني للهجرة"[1].

فالصوفية يقرون بأن مصطلح (الصوفية) حادث. لكنهم يقولون: الأحوال الصوفية موجودة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، تمثلت في أهل الصفة. ولأجله ذهب بعضهم إلى أن أصل التصوف مشتق من (الصُّفّة)، وهو مكان كان يأوي إليه الفقراء في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم. ومن ترجم منهم لأئمة التصوف: جعل أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضوان الله عليهم أوائل الصوفية، ونسب إليهم كلمات في المقامات والأحوال.

والوصف المشترك بين جميع من نُسبوا إلى التصوف من أئمة القرون الثلاثة الأولى هو: الزهد، والمجاهدة. الزهد في متاع الحياة الدنيا، ومجاهدة النفس لتهذيبها، ونفي عيوبها.

ونتيجة هذا: تمثل التصوف في الزهد والمجاهد. فكل زاهدٍ مجاهدٍ متصوفٌ، ومن له حال في الزهد والمجاهدة فهو: صوفي. هكذا قال بعضهم !!. لكنهم لم يتفقوا

على رأي واحد في أصل كلمة "صوفية" واشتقاقها، فما قرره بعضهم نقضه آخرون، وقد رجعوا بالكلمة إلى أصول ستة أو سبعة، هي:

1- الصفّة.

وبهذا قال أبو عبد الرحمن السلمي: "التصوف مأخوذ من أهل الصفة"[2].

وقال الكلاباذي: "وقال قوم: إنما سموا: صوفية. لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم".[3]

وقال السهروردي: "وقيل: سموا صوفية. نسبة إلى الصفة.. وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي، ولكنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكلهم حال أولئك، لكونهم مجتمعين متألفين، متصاحبين لله، وفي الله، كأصحاب الصفة"[4].

2- الصفاء.

قال الكلاباذي: "قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله"[5].

وقال السهروردي: "قيل: كان الاسم في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك فجعل صوفيا".[6]

وذكر نيكولسون: أن جمهور الصوفية ذهبوا إلى أن الصوفي مشتق من الصفاء، وأنه أحد خاصة الله، الذين طهر الله قلوبهم من كدورات الدنيا [7].

3- الصف الأول.

قال الكلاباذي: "وقال قوم: إنما سموا صوفية. لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه".[8]

وقال السهروردي: "سموا صوفية، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه"[9]، كقول الكلاباذي.

4- الصوف.

يقول الطوسي: " نسبوا إلى ظاهر اللبس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام، والصديقين، وشعار المساكين المتنسكين"[10].

ويقول السهروردي: "ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام...فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة، وسترة العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال: تصوف؛ إذا لبس الصوف، كما يقال: تقمص؛ إذا لبس القميص"[11].

5- صوفة.

ذكر ابن طاهر المقدسي القيسراني بسنده إلى الحافظ أبي محمد عبد الغني بن سعيد المقدسي قال: "سألت وليد بن القاسم: إلى أي شيء نسب الصوفي؟، فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية.

قال عبد الغني: هؤلاء المعروفون بصوفة، هم ولد الغوث بن مر"[12].

قال ابن الجوزي: "كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مؤمن مسلم. ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه

وتعالى عند بيته الحرام، رجل يقال له: صوفة. واسمه الغوث بن مرٍّ، فانتسبوا إليه، لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، فسموا بالصوفية".[13]

ثم ذكر أثر عبد الغني المقدسي الآنف الذكر، ثم قال: "وبالإسناد إلى الزبير بن بكار قال: كانت الإجازة بالحج للناس من عرفة إلى الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة، ثم كانت في ولده، وكان يقال لهم: صوفة. وكان إذا حانت الإجازة قالت العرب: أجز صوفة. قال الزبير: قال أبو عبيدة: وصوفة وصوفان. يقال: لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله، أو قام بشيء من أمر المناسك، يقال لهم: صوفة وصوفان.

قال الزبير حدثني أبو الحسن الأثرم عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: إنما سمي الغوث بن مر صوفة؛ لأنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت، فقيل له صوفة، ولولده من بعده"[14].

6- صوفانة.

قال ابن الجوزي: "وقد ذهب إلى أنه من الصوفانة، وهي بقلة رعناء قصيرة، فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضا غلط، لأنه لو نسبوا إليها لقيل: صوفاني.

وقال: آخرون: هو منسوب إلى صوفة القفا. وهي الشعيرات النابتة في مؤخره، كأن الصوفي عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق".[15]

7- النسبة إلى جميع ما سبق: الصف الأول، والصفة، والصوف، والصفاء.

نحا إلى هذا الرأي الكلاباذي، حيث صحح نسبة الصوفية إلى جميع ما ذكر باعتبار المعنى، وإن كان يقر باستحالة ذلك لغة، قال:

- "وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف، فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا...

- ومن نسبهم إلى الصفة والصف الأول، فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم...

- فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها، ومعاني هـذه الأسـماء كلهـا في أسـامي القوم وألقابهم، وصححت هذه العبارات، وقربت هذه المآخذ.

- وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر، فإن المعاني متفقة:

- لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت: صفوية.

- وإن أضيفت إلى الصف والصفة، كانت: صَفية، وصُفية.

- ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الـصوفية[16]، وزيادتهـا في لفظ: الصَفية. والصُفية إنما كانت من تداول الألسن.

- وإن جعل مأخذه من الصوف، استقام اللفظ، وصحت العبارة مـن حيـث اللغة.

- وجميع المعاني كلها من التخلي عـن الـدنيا، وعـزوف الـنفس عنهـا، وتـرك الأوطان ولزوم الأسفار"[17].

وصنيع الكلاباذي ليس بغريـب عـلى الـنهج الـصوفي، فقـد رأينـاه في كـلام السهروردي حينما قال: "قيل: كان الاسم في الأصل صفوي، فاسـتثقل ذلـك فجعـل صوفيا".[18]

والملاحظ في كلامه ؟؟!!.. افتراض أن أصل الكلمة هي:

- صَفيّة من الصف.
- وصُفيّة من الصفة.
- وصفوية من الصفاء.

وإنما انقلبت إلى (صـوفية) بـسبب تـداول الألـسن، حيـث زادت الـواو في: صَفيّة، وصُفيّة.

وتبادل الواو والفاء المواقع في:صفوية..!!.

وهذا قول يحتاج إلى دليل، ولم يستند إلى شيء، ولم أره لغيره.

* * *

- نقد الصوفية لهذه التعريفات.

أكثر هذه الأقوال رواجا: النسبة إلى الصفاء. فقد ذكر نيكلسون: أن مقابل كل تعريف ينسب الصوفية إلى الصفة: اثني عشر تعريفا ينسبها إلى الصفاء، وذلك بالنظر في تعريفات الأئمة الصوفية، في الفترة الممتدة بين عام200 إلى 440 هـ، وقد نقلها في كتابه، ثم قال:

"يتبين من النظر في التعريفات أن الزمن الذي وضعت فيه يكاد يقرب من قرنين ونصف؛ لأن أولها هو تعريف معروف الكرخي المتوفى سنة 200هـ، وآخرها تعريف أبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة 440هـ. ويتبين أيضا أنها تعريفات من أنواع مختلفة:

- إذ منها الثيوسوفي المتصل بأحوال الصوفية.
- ومنها المتصل بوحدة الوجود.
- كما أن منها الأخلاقي اللغوي، وهو ما أشبه بالحكم.

وليس في عصرنا الحاضر من ينكر اشتقاق كلمة الصوفي من الصوف، ولكن الناظر في التعريفات التي ذكرناها، سيظهر له في وضوح، أن الصوفية أنفسهم لم يأخذوا بهذا الرأي، فإنا نجد في مقابل كل تعريف، ينسب الصوفية إلى لبس الصوف، اثني عشر تعريفا، يشير إلى اشتقاق كلمة الصرفي من الصفاء"[19].

فهذا ما اشتهر في تعريفات من تقدم من الأئمة المتصوفة: النسبة إلى الصفاء.

فهو التعريف الشائع المشهور، أما من بعدهم، فقد صاروا إلى ترجيح النسبة إلى الصوف، على الرغم من أن أئمة الصوفية لم يأبهوا لهذا الرأي، كما ذكر نيكلسون آنفا، وكما يذكر القشيري والهجويري.

ثم تأتي في المرتبة بعدهما النسبة إلى الصفة وإلى الصف الأول، فقد قال بها جمع من المتقدمين، لكن يبدو أن القائلين بالنسبة إلى الصفة أكثر.

وأما النسبة إلى الصوفة، فهي تأتي على معنيين:

- الأول: نسبة إلى رجل يدعى: صوفة. وهو الغوث بن مر بن أدّ.

- الثاني: نسبة إلى صوفة القفا، وهي: شعيرات مهملة في قفا الرأس.

فهذه النسبة، والنسبة إلى الصوفانة: بقلة تنبت في الصحراء. قد ذكرت، لكن ليس على ألسنة المتصوفة، وليس لها ثقل يوازي الأربعة الأولى، وإن كانت الأربعة فيما بينها متفاوتة، على ما سبق تفصيله.

ويلاحظ أن جميع النسب السابقة لا تصح لغة، باعتراف أئمة التصوف، وإن كان ثبوتها أو بطلانها لغة لا تشترط فيها شهادتهم، بل يرجع إلى اللغة، غير أن إقرارهم مفيد في كل حال.

يقول القشيري: "هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي. وللجماعة: صوفية. ومن يتوصل إلى ذلك، يقال له: متصوف. وللجماعة: المتصوفة.

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية: قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه: أنه كاللقب.

- فأما قول من قال: إنه من الصوف. ولهذا يقال: تصوف. إذا لبس الصوف. كما يقال: تقمص. إذا لبس القميص. فذلك وجه، لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

- ومن قال: إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي.[20]

- ومن قال إنه مشتق من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة.

- وقول من قال: إنه مشتق من الصف. فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

ثم إنه هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ، واستحقاق اشتقاق".[21]

يلخص القشيري رأيه في كلمات:

"وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية: قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه: أنه كاللقب".

لقد رفض هذه النسب جميعا لغة واشتقاقا، ولم يأبه للنسبة إلى الصفة والصفاء من حيث المعنى، إلا الصف، فصحح المعنى، ورد الاشتقاق. وأما الصوف فقد صحح الاشتقاق منه لغة، لكنه حكم ببطلان النسبة إليه !!.. علل ذلك: بأن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

فالنسب كلها باطلة لغة إذن، يستثنى منها:

- النسبة إلى الصوف.
- والنسبة إلى صوفة.

فهاتان النسبتان صحيحتان لغة، لكن الثانية منها غير مشهورة، فأئمة التصوف، كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري، والسهروردي وغيرهم، لم يذكروها ألبتة، فهي مطّرحة عندهم إذن، ويشكل عليها: أن لقب (صوفية) لم يعرف ولم يشتهر إلا في القرن الثاني، بينما هؤلاء الزهاد والعباد ظهروا في فترة مبكرة في القرن الأول في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فلو كان هذا اللقب مستمدا من هذا الاسم (صوفة) فلم لم يطلق عليهم في ذلك الوقت؟، ولم تأخر حتى منتصف القرن الثاني إلى نهايته؟. فالاسم (صوفة) موجود منذ الجاهلية، والمنقطعون الزهاد العباد موجودون، ومع ذلك لم يطلق عليهم اسم (صوفية) حتى حل القرن الثاني، ومر نصفه، ثم بدأ هذا الاسم بالظهور، كما ثبت بالبحث التاريخي، فهذا مما يضعف هذه النسبة.

- فلم تبق نسبة صحيحة منها، من حيث اللغة، سوى النسبة إلى الصوف.

فهذه مقبولة لغة، أما من حيث المعنى فقد رُدّت كذلك بأقوال أقطاب التصوف، كالقشيري والهجويري، وإن كانت مقبولة عند غيرهما كالطوسي والسهروردي.

والنتيجة التي نخرج بها من هذا العرض: أن الصوفية لم يتفقوا على نسبة معينة، فإذا اطرحنا ما ثبت بطلانه لغة، وهو الواجب، لأنه لا وجه لإثبات نسبة خاطئة لغة إلا سفسطة، بقيت النسبة الصحيحة لغة: (الصوف). وهذه أيضا لم تسلم

من النقد والرد، وكان علة ذلك، كما ذكر القشيري: أن القوم لم يختصوا ولم يشتهروا به. قال: "القوم لم يختصوا بلبس الصوف"[22].

وهذه شهادة خطيرة، فيها نقض لقول من ادعى أن الصوفية اشتهروا بلباس الصوف، شهد بها إمام عارف من أئمة الصوفية المتقدمين، العارفين بأحوال بدايات التصوف، حيث عاش في القرنين الرابع والخامس (377-465)، فهو من الجيل الثالث أو الرابع، والتصوف إنما نشأ في هذه الأجيال الممتدة ما بين القرن الثالث إلى الخامس، وكل ما لم يكن في هذه الفترة فليس من التصوف قطعا؛ لأن أهلها هم أئمة المذهب، وواضعوا أسسه، لا يختلف على هذا أحد.

ومما يعطي الشهادة قيمة أكبر، أنا لم نسمع بإمام صوفي انبرى للرد عليه وإبطال زعمه هذا، فسكوتهم دليل موافقتهم له، ويبعد أن يكونوا غير مطلعين على كتابه، بل يستحيل، فكتابه (الرسالة) من أشهر كتب التصوف، فمن الذي لا يعرفه من الصوفية؟!.

بل سايره على هذا الرأي، ووافقه: إمام آخر معاصر له هو الهجويري ، حيث قال: "واشتقاق هذا الاسم لا يصلح على مقتضى اللغة، من أي معنى، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس يشتق منه، وهم يشتقون الشيء من شيء مجانس له، وكل ما هو كائن ضد الصفاء، ولا يشتق الشيء من ضده، وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله، ولا يحتاج إلى العبارة "[23].

- القول الراجح في نسبة الصوفية.

بقيت نسبة أخيرة لم يذكرها أحد من المتصوفة..!!..

فقد رجع بعض الباحثين والمؤرخين، المختصين بعلوم الديانات القديمة: الهندية والفلسفية. من غير المتصوفة، بالكلمة إلى أصل يوناني، هو كلمة: (سوفيا)، ومعناها: الحكمة.

وأول من عرف بهذا الرأي: البيروني في كتابه: "تحقيق ما للهنْد من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وتبعه عليه جمع، خصوصا الباحثين المعاصرين، وفيما يلي أقوال الذين يقررون أجنبية المصطلح والفكرة عن البيئة الإسلامية:

1- يقول أبو الريحان البيروني مبينا أصول التصوف في الفكر الفلسفي الهندي: "ومنهم من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط، لاستغنائها بذاتها فيه، وحاجة غيرها إليها، وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق، والحق هو الواحد الأول فقط.

- وهذا رأي (السوفية) وهم الحكماء، فإن (سوف) باليونانية الحكمة، وبها سمي الفيلسوف (بيلاسوبا)، أي محب الحكمة.

- ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم، سموا باسمهم، ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى (الصفة)، وأنهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صُحّف بعد ذلك، فصُيّر من صوف التيوس"[24].

2- وبهذا قال كل من: المستشرق الألماني فون هامر، ومحمد لطفي جمعة، وعبد العزيز إسلامبولي، ذهبوا إلى ما ذكره البيروني آنفا.[25]

3- المستشرق نيكلسون في كتابه: (الصوفية في الإسلام) قال: "وكلمة Mystic التي انحدرت من الديانة الإغريقية إلى الآداب الأوروبية، يقابلها في العربية والفارسية والتركية، لغات الإسلام الثلاث الرئيسة، كلمة (صوفي)، واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماما، لأن للفظة الصوفي مدلول ديني خاص، وقد قيدها بالصوفية الذين يدينون الدين الإسلامي، والكلمة العربية وإن اكتسبت على مدى الأيام مدلول الكلمة الإغريقية الواسع: شفاه مقفلة بالأسرار القدسية، وعيون مغمضة على النشوة الحالمة؛ إلا أن مدلولها كان متواضعا، يوم جرت على الألسنة لأول مرة، حوالي نهاية القرن الثاني الهجري"[26].

- الشاهد من كلامه: أن الكلمة اكتسبت مدلول الكلمة الإغريقية على مدى الأيام، فهذا الرأي يرجع بمضمون الفكرة إلى جهة إغريقية، وهذا هو المهم.

4- إبراهيم هلال قال: "على أن الأصل في تسمية هذا المذهب بالتصوف، وأصحابه بالصوفية، يوقفنا على أن التصوف في أصله إنما هو استيراد أجنبي، ليس

للإسـلام فيـه شيء، لا في نـشأته، ولا في طريقتـه المتزيـدة، ولا في غايتـه أو غاياتـه المتعددة"[27].

5- الدكتور محمد جميل غازي، الذي قال: "الصوفية كما نعلـم اسـم يونـاني قديم مأخوذ من الحكمة (صوفيا) وليس كما يقولون إنه مأخوذ من الصوف".[28]

6- إحسان إلهي ظهير حيث ذهب إلى أنه لا اعتدال التصوف.[29]

7- المقبلي قال: "فالتصوف ليس من مسمى الـدين، لأن الـدين كمـل قبلـه، أعني دين الإسلام، ولا هو من النعمة، لأنها تمـت قبلـه، ولـيس التـصوف داخـلا في مسمى الإسلام، لأن الإسلام تم قبلـه، وهـم معترفـون بالغيريـة، فحينئـذ هـو بدعـة ضلالة"[30].

ولهذا الرأي أدلة ترجحه على النسب السابقة، وبخاصة النـسبة إلى الـصوف، فمن ذلك:

أولا: التشابه ما بين كلمتي (صوفية) و (سوفية) في اللفظ والرسـم، وجـواز التبديل بين حرفي السين والصاد.

ثانيا: اتحاد مدلول الكلمتين: (سوفية)، (صوفية)؛ فمدلولهما: الحكمـة. يبـين هذا:

- أن الصوفي عند الصوفية هو الحكـيم، وهـو صـاحب الحكمـة. لـذا يكثـر دورانهم على هذا المعنى، ويجعلونه وصفا لازما للصوفي، فمن لم يكن حكيما فليس لـه حظ من اللقب، هكذا يقـرر ابـن عـربي – وغـيره – فيقـول: "ومـن شروط المنعوت بالتصوف: أن يكون حكيما ذا حكمة. وإن لم يكن، فلا حظ له من هذا اللقب"[31].

- وكلمة (سوف) باليونانية تعنى الحكمـة كـذلك، والفيلاسـوف هـو محـب الحكمة، وفق ما ذكر البيروني آنفا..

فـإذا كانـت (الحكمـة) هـي (التـصوف)، و (الحكـيم) هـو (الـصوفي).. و (الحكمة) هي (سوف)، و(الحكماء) هم (السوفية)، فأي اتفاق بعد هذا؟..

يقول نيكلسون:

"بعض الباحثين من الأوربيين يردها إلى الكلمة الإغريقية: سوفوس، بمعنى ثيوصوفي".. [32]

وكلمة "ثيوصوفي" معناها: الحكمة الإلهية. (ثيو = إله)، (صوفي = الحكمة).[33]

ويقول عبد الواحد يحيى، وهو فرنسي معاصر، أسلم وتصوف:

"وأما أصل الكلمة، فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا، ووضعت فروض متعددة، وليس بعضها أولى من بعض، وكلها غير مقبولة، إنها في الحقيقة تسمية رمزية.!!.

وإذا أردنا تفسيرها، ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ: أن القيمة العددية لحروف (صوفي)، تمثل القيمة العددية لحروف (الحكيم الإلهي). فيكون الصوفي الحقيقي إذن هو:

الرجل الذي وصل إلى الحكمة، إنه (العارف بالله)، إذ أن الله لا يعرف إلا به"[34].

وتأتي قيمة هذا النص، من كونه في نظر الدكتور عبد الحليم محمود: صوفيا متحققا بالتصوف، من العارفين بالله.[35] وهذه شهادة من صوفي كبير، لا خلاف في إمامته، وعليه فهذا الفرنسي المسلم المتصوف، إنما يعبر عن التصوف بعمق وإدراك لحقائقه إذن. وهكذا كل من تبحر في التصوف، يجد نفسه أمام هذه النتيجة ولا بد.

ثالثا: مضمون التصوف يوافق مضمون الفلسفة (سوفية)، فكلاهما يرميان إلى التشبه بالإله، وهذا يتبين من تعريف (التصوف) و (الفلسفة) :

- قال الجرجاني: "الفلسفة التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية، لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر الصادق صلى الله عليه وسلم في قوله: (تخلقوا بأخلاق الله)[36]؛ أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات، والتجرد من الجسميات"[37].

- جاء في اصطلاحات الصوفية للكاشاني: "التصوف: هو التخلق بالأخلاق الإلهية"[38].

- وابن عربي يقول: "فاعلم أن التصوف تشبيه بخالقنا لأنه خلق فانظر ترى عجبا".[39]

فالتشبه والتخلق أمرهما واحد هو: التمثّل. فالمتشبه بشيء ما: يتمثل صفاته. والمتخلق بخلق شيء ما: يتمثل صفاته.

رابعا: كان عند قدماء اليونان: مذهب روحي يعتنقه النساك والزهاد، ينأون بجانبهم عن الدنيا، ويلجئون إلى أنواع المجاهدات والرياضات الروحية، يتقربون بأرواحهم إلى خالقهم، لتلقي الحكمة والمعارف القدسية، كان يطلق عليهم لقب: (تيو صوفية)، ومعناه: الحكماء الإلهيون. وإذا تأملنا هذا المذهب، وما يدعوا إليه الصوفية، وجدناهما سواء، كما أنهما سواء في اللقب.[40]

خامسا: من هذا القبيل طائفة من الهنود القدامى، كانوا يعرفون باسم: (جيمنو صوفيا) ومعناه: الحكيم العاري. كانوا يقضون حياتهم في السياحة، متأملين الله تعالى. وهذا أيضا مذهب يعتنقه الصوفية الإسلام: السياحة، والتأمل.[41]

إذن هي فكرة قديمة، تجتمع كلها في لقب الحكمة (= صوفية، أو سوفية).

* * *

ولهذا الرأي إشارة محتملة في كلام القشيري والهجويري، اللذين قررا أنها كلمة جامدة غير مشتقة، وربما سبب جمودها كونها أعجمية.. نعم يوجد في العربية ألفاظ جامدة، والكلمات المعرّبة كذلك جامدة، وليس هذا بحثنا، إنما تحرير كلام هؤلاء الذين نفوا اشتقاقها، فإنه يحتمل الإشارة إلى أجنبيتها، فلنعد النظر فيما قاله القشيري والهجويري في هذا المقام:

قال القشيري: " وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب .. القوم لم يختصوا بلبس الصوف"[42].

- وقال الهجويري: "واشتقاق هذا الاسم لا يصلح على مقتُضى اللغة، من أي معنى"[43].

- وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره المستشرق نيكلسون بقوله: "ولكن الناظر في التعريفات التي ذكرناها، سيظهر له في وضوح، أن الصوفية أنفسهم لم يأخذوا بهذا الرأي، فإنا نجد في مقابل كل تعريف، ينسب الصوفية إلى لبس الصوف، اثني عشر تعريفا، يشير إلى اشتقاق كلمة الصوفي من الصفاء"[44].

إذن النتيجة المهمة هنا:

- أن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.
- ولا يشهد لاسم (صوفية) من حيث العربية، قياس ولا اشتقاق.
- والصوفية لم يأخذوا بهذا الرأي.

فالقشيري استظهر أنه لقب، ومنع هو والهجويري أن يكون له أصل لغوي..!!.

كل هذه إشارات إلى أعجمية الكلمة، وإن لم يصرحا بذلك، وإن حاولا التفلت من هذه النتيجة، بأشياء، من قبيل تعظيم الاسم أن يكون له جنس يشتق منه، كما فعل الهجويري، غير أن هذا التسليم، بمنع اشتقاق الكلمة لغة، مع استظهار القشيري أنها لقب، يرجح أن الكلمة أعجمية، يدل على هذا: أن أحدا من أهل اللغة لم يقل في هذه الكلمة أنها جامدة، كما قيل في لفظ الجلالة "الله". بل الذي قالوه إنها كلمة مولدة، يقول أحمد المقرئ:

- " تصوف الرجل، وهو صوفي، من قوم صوفية، كلمة مولدة"[45].

وكأنهما عرفا بذلك، وهذا محتمل، لكن لم يكن من السهولة التصريح بأن أصل الكلمة يونانية فلسفية، تدل على مذهب قديم، له قواعد وأصول معروفة، تتشابه مع أصول الصوفية في الإسلام، فمثل هذا لا يمكن أن يفصح به إمام صوفي، وإلا كان عونا على نقض مذهبه!!.

فالكلمة إذن ليست عربية، بل هي يونانية، أصلها: (سوفية)، لما دخلت إلى العربية، بدخول فلسفتها ومضمونها، غُيّر حرف السين فأشبع فصُيّر صادا، إما عمدا أو اتفاقا، لقرب المخارج، فدخلت الكلمة في العربية لفظا ومعنى، ساعد عليه جواز قلب السين صاد في اللغة العربية[46].

واستفادوا من هذا التحوير: التعمية والتضليل عن أصل الفكرة. فهم (صوفية) في الظاهر، نسبة إلى اللباس، وفي الباطن (سوفية) نسبة إلى الفلسفة اليونانية الهندية، يقول الدكتور عمر فروخ: "كانوا، في حال اجتماعهم مع غيرهم، يحافظون على ظاهر الدين الإسلامي، وعلى فرائضه، أما في خلواتهم، وفيما بينهم، فكان لهم أشياء يستحي العاقل من ذكرها".[47]

* * *

الهوامش:

---

[1] – مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف ص4.. ويقول أحمد المقرئ: " تصوف الرجل، وهو صوفي، من قوم صوفية، كلمة مولدة". المصباح المنير ص134

[2] – تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ص365.

[3] – التعرف ص27.

[4] – عوارف المعارف 5/ 84.

[5] – التعرف لمذهب أهل التصوف ص26.

[6] – عوارف المعارف 5/ 84، ذهب إلى هذا الرأي الكلاباذي في التعرف، وسيأتي كلامه.

[7] – انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه ص66.

[8] – التعرف ص26-27.

[9] – عوارف المعارف 5/ 84.

[10] - اللمع ص41.

[11] - عوارف المعارف، ملحق بـ لإحياء 5/ 83، وقد ذهب إلى هـذا الـرأي شيخ الإسلام ابن تيمية 11/ 195، وابن خلدون في المقدمة ص467.

[12] - صفوة التصوف ص154.

[13] - تلبيس إبليس ص161.

[14] - تلبيس إبليس ص161،162.

[15] - تلبيس إبليس ص163.

[16] - هكذا في الكتاب، ويفترض أن تكون: "صفوية".

[17] - التعرف 27-32.

[18] - عوارف المعارف 5/ 84، ذهب إلى هذا الرأي الكلاباذي في التعرف، وسيأتي كلامه.

[19] - في التصوف الإسلامي وتاريخه ص28، وكلمة "ثيو سوفي" يونانيـة، معناها الحكمة الإلهية، ثيو (Theism) : الإله ؛ سوفي (Sophy):الحكمة..

انظر: المعجـم الفلـسفي 1/ 360 (مـادة: التوحيـد)، المـورد ص 879 (مـادة Sophy) .

[20] - ومن جهة المعنى كذلك ، فلم يكن أهـل الـصفة متـصوفة، ولا خـبر لهم بأفكار الصوفية، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في إبطال تصوف أهـل الـصفة. انظر الفتاوى 11/ 37،71.. قال ابن الجوزي: "وهؤلاء القوم إنـما قعـدوا في المـسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عـن تلـك الحال، وخرجوا، ونسبة الصوفي إلى أهل الـصفة غلـط، لأنـه لـو كـان كـذلك لقيـل: صفي" تلبيس إبليس ص162،163.

[21]- الرسالة 2/ 550-551.

[22] - الرسالة 2/ 550،551 .

[23] - كشف المحجوب 1/ 230،231.

[24]- تحقيق ما للهند من مقولـة مقبولـة في العقـل أو مرذولـة ص27، وفي قول البيروني جواب لقول من قال: لـو كـان "صـوفي" مـأخوذ مـن "سـوفيا" لقيـل: "سوفي"، انظر التصوف في الإسلام، عمر فروخ ص24،29.

[25] – انظر: التصوف المنشأ والمصادر ص33، قضية التصوف، المنقذ من الضلال، ص32.
[26] –ص10، عن كلمة (Mystic) ومعناها، ومرادفاتها في اللغات الأخرى، انظر: المعجم الفلسفي 1/ 282،747.
[27] – قطر الولي ص181.
[28] – الصوفية الوجه الآخر ص47.
[29] – التصوف المنشأ والمصادر ص6.
[30] – العلم الشامخ ص470.
[31]– الفتوحات المكية 2/ 266.
[32] – الصوفية في الإسلام ص11.
[33] – كلمة "ثيو سوفي" يونانية، معناها الحكمة الإلهية، ثيو (Theism): الإله؛ سوفي (Sophy):الحكمة..
انظر: المعجم الفلسفي 1/ 360 (مادة: التوحيد)، المورد ص 879 (مادة Sophy) .
[34]– قضية التصوف، المنقذ من الضلال، عبدالحليم محمود، ص32، وانظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي 1/ 359. والمذكور فرنسي الأصل، كان اسمه: رينيه جينو. انظر: م.س قضية التصوف
[35] – انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ص281.
[36] – سيأتي تخريجه: ص197 من هذه الرسالة.
[37]– التعريفات ص73.
[38] – ص164.
[39] – الفتوحات 2/ 266.
[40]– انظر: أضواء على التصوف، طلعت غنام ص66.
[41] – نشأة الفكر الفلسفي 3/ 42.
[42] – الرسالة 2/ 551،550 .
[43] – كشف المحجوب 1/ 231،230.
[44] – في التصوف الإسلامي وتاريخه ص28.

[45] – المصباح المنير ص134.

[46] – شاهد هذا ما ورد عن أئمة القراءات جواز قراءة قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}، بالسين بدل الصاد.

[47] – التصوف في الإسلام ص20-21.

***

مفتى مصر "على جمعة"
التصوف هو الدين رغم أنف المنكرين

قال الدكتور على جمعة، مفتى الجمهورية، إن من أنكر التصوف هو مادى أراد قتل الإسلام، مشيرا إلى أن التصوف هو الفهم الصحيح للإسلام، مطالبا بالعودة مرة أخرى للحقائق كما تركها الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد مـ لحقها من تدليس وقلب للحقائق .

جاء ذلك خلال لقائه فى برنامج "كلمة حق" الذى يذاع على التلفزيون المصرى وكانت الحلقة بعنوان "الصوفية والتصوف" وبحضور الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر السابق وعضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية .

وأضاف المفتى أن على الجميع أن يفهموا أن التصوف هو الدين رغم أنف جميع المنكرين، وأنه ليس منهجا دمويا بل هو الدين،كما عدد المفتى فضائل التصوف من الزهد والورع وتحدث عن أشهر علماء التصوف .

من جانبه قال الدكتور أحمد عمر هاشم، عضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية، إن الذين افتعلوا هذه الخصومة الكاذبة بينهم وبين التصوف ما عرفوا ولا تذوقوا حلاوة الدين، ومن ذاق عرف، داعيا الجميع أن يكونوا على قلب رجل واحد وأن لا ننبذ اتجاها دينيا صافيا كالتصوف.

المصدر:

اليوم السابع | مفتى الجمهورية: التصوف هو الدين رغم أنف المنكرين

***

هل الصوفية فِرْقة من الفِرَق؟

الصوفيَّة من أهل السُّنّة والجماعة.. ومنهم أئمة كِبار من السَّلف الصالح.. وليسوا فِرْقة ولا يستقلُّون بمذهب خاص بهم..

أجمل خَلْق الله هم الصوفية...؛ فالصوفية معناها الحفاظ على درجة الإحسان: «أنْ تَعْبُدَ اللهَّ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك» [1].. هذه هي الصوفية.

فإذا وجدنا أدعياء تصوف -وهم لا يَزِنون شيئاً بميزان الحقيقة والشريعة- فما شأن الصوفية بذلك، فالأدعياء قد يوجدون في كل مجال زمانًا ومكانًا.

فأنتم تجدون أيضا أن شأن عموم المسلمين هو كذلك أيضاً، فنجد مَن هو مِن المسلمين مَن اسمه محمد محمود مصطفي أحمد وتجده فاسدًا مثلاً، فهل معناه أن الإسلام غير طيب!

لا تحكم على التصوف من خلال الصوفية: التصوف هو مراعاة درجة الإحسان.. كن مع ذلك، والشريعة واضحة، طريقنا مقيدٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ، فما وافق الكتاب والسنة فذاك، وما خالف الكتاب والسنة فاضرب به عرض الحائط.

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: «مَنْ تفقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسقَ، وَمَنْ تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق» [2].

فاحذر وأنت تحارب الفاسق أن تقوم بمحاربة الإسلام ذاته، وإذا كنا نحارب المنحرف فلنحذر من محاربة التصوف فلن نكون حكماء حينئذ: {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [البقرة:269].

---

[1] رواه البخاري: الإيمان- سؤال جبريل: 50، عن أبي هُريرة رضى الله عنه.

[2] حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي ج3/ ص195. وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي القاري المتوفى 1014هـ. ج1/ ص33.

رعاية الله لأوليائه

إن من سعة رحمة الله تعالى بخلقه عنايته بهم بعد استخلافهم في الأرض بموالاة إرسال الرسل إليهم بالهدى كلما نسوا وضلوا مع أخذهم بالحلم والإمهال لمسيئهم، وقد شملت رحمته عز وجل جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم، ولكنه سبحانه أولى أولياءه رعاية خاصة؛ وأحاطهم بعنايته وصانهم من كل سوء، يقول صلى الله عليه وسلم: «إن لله عز وجل عبادا يحييهم في عافية، ويميتهم في عافية، ويبعثهم في عافية، ويدخلهم الجنة في عافية» (المعجم الأوسط 3/ 266).

وممن أحاطهم الله سبحانه بعنايته وجعلهم في رعايته وخلدهم بذكره لهم في القرآن الكريم أصحاب الكهف؛ وهم فتية من صالح قومهم، ثبتوا على دين الحق لما شاع الكفر والشرك في قومهم وانتشر الباطل والبغي في ديارهم {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف:13]، هم فتية تبين لهم الهدي في مجتمع ضل عن الله تعالى، ولا حياة لهم في هذا المجتمع إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا معيشة الكهف على زينة الحياة الدنيا.

هكذا يعرضهم القرآن الكريم كنموذج للإيمان في النفوس المؤمنة؛ كيف تطمئن به وتؤثره علي زينة لأرض ومتاعها: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا}

[الكهف:16]، وتحكي القصة كيف يحفظ الله هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة ويشملها بالرحمة؛ فالكهف ضيق خشن وبعيد عن العمران والناس، ولكن حمى الله أوسع وأرحم، ورعاية الله للمؤمنين أرحب وأعظم.

فها هم شباب مؤمنون أووا إلى الكهف؛ فضرب الله على آذانهم فناموا سنين طويلة، ثم يأذن الله ببعثهم بعد هذه السنين: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ} [الكهف:19] وهم لا يدرون كم لبثوا، فكل ما يعلمونه أنهم أدركهم النوم فناموا ثم استيقظوا، ثم رأوا أنه لا طائل من هذا السؤال وليس من المهم معرفة الجواب، ففوضوا الأمر لله وانصرفوا إلى شأنهم وقالوا: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} [الكهف:19].

وهكذا يدرك هؤلاء الفتية بعد استيقاظهم ونزولهم المدينة أنه في فترة نومهم قد تغيرت الأحوال وطويت الدهور وزالت دول وقامت أخري، وفي الوقت ذاته يعلم الناس الذين استيقظوا في عهدهم أن قدرة الله تعالي لا يحدها حد وأن رعايته لأوليائه لا نهاية لها وأن وعد الله حق: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} [الكهف:21].

ولما ظهر أمرهم وبانت معجزتهم تنازع الناس في عددهم فجاء التوجيه: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف:22]، وإنما كان ذلك صيانة للطاقة العقلية أن تتبدد في غير ما يفيد، ولئلا يقفو المسلم ما ليس له به علم؛ إذ هذه أحداث طواها الزمن فهي من الغيب الموكول علمه إلي علام الغيوب.

ولم يقتصر نهيه سبحانه عن الحديث في أمر غيبي ماض لا يفيد؛ بل نهى كذلك عن الجدل في غيب المستقبل وما يقع فيه من الجزم بأن المقدمات التي يدبرها الإنسان ستؤدي إلى نتائجها المعتادة؛ فقال تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [الكهف:23-24]؛ فكل شيء مرهون بإرادة الله، وعقل الإنسان مهما علا قاصر عن إدراك ما قدره الله تعالى.

وليس معنى هذا ألا يدبر الإنسان في أمر المستقبل وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله؛ بل معناه أن يلحظ الغيب والمشيئة التي تدبره، وأن يعزم ويستعين

بمشيئة الله على ما يعزم ويستشعر أن يد الله فوق يده؛ ولا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره؛ فإن وفقه الله إلى مراده فيها،وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس؛ فالأمر لله أولا وآخرا.

إن قصة أصحاب الكهف قصة صراع بين الحق والباطل،وصورة مواجهة بين الإيمان والمادة، وقصة تهدينا إلي التعلق بالأسباب مع الاعتماد على الله وحده؛ وتعلمنا أيضا أن اللجوء إلى الله تعالى سمة المؤمن؛ فهو سبحانه عونه ونصيره {رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف:10]؛ فإن الفتية لما لجؤوا إليه داعين وأسلموا قيادهم له سبحانه واعتمدوا عليه آواهم الله وحفظهم في الكهف وأغدق عليهم مما طلبوا من الرحمة والهدى والرشاد: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا} [الكهف:16]، وكذلك كل من لجأ إلى ربه واعتمد عليه ثبته الله وحفظه وأيده بنصر من عنده.

دور التصوف في الحفاظ على الهوية الدينية في مصر

نشأ التصوف ليضع أتباعه في خضم الأحداث الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي لا ليكونوا في معزل عن تلك الأحداث، بل عمل على إعدادهم ليكونوا في خدمة الدين والأمة والوطن.

فلم يقف التصوف ولا الصوفية عند حالة الذكر والزهد والتعبد الفردي أو الجماعي، بل أصبح للتصوف مؤسسات كبيرة لها امتداد في العالم أجمع، وصارت تقوم بدور تنموي وسياسي واجتماعي؛ فقد أفرزت الصوفية على مر العصور علماء ورجالا وقامات يزخر ويزدهر التاريخ الإسلامي بهم استنادا إلى شعبيتهم الجارفة، وحب جماهير المسلمين لهم، وما وصلوا إلى هذه المكانة وتلك المرتبة إلا بحسن التأسي والسلوك على المنهج القويم الثابت عن الكتاب والسنة واحترام علماء الأمة والسعي إلى وحدة المسلمين وابتغاء تماسكهم، ولذا لم يقتصروا على جهاد النفس فحسب كما

يردد من لا يعرفهم، ولكنهم جمعوا إلى ذلك القوة في محاربة الأعداء والطغاة، ومن نماذج هؤلاء الإمام الغزالي ومحيي الدين بن عربي والعز بن عبد السلام والإمام النووي، وفي العهد غير البعيد حمل الصوفية لواء الثورة الوطنية في مصر في مواجهة أمراء المماليك، حيث قاد الإمام الدردير الصوفي الكبير ثورة كبيرة ضد المماليك قبل الثورة الفرنسية بثلاث سنوات، أجبرت المماليك على الاعتراف بأن الأمة مصدر السلطات، ومنعتهم من فرض ضرائب جديدة إلا برأي الشعب، مع الإقرار الكامل بحرية الأمة وكرامتها.

وللتصوف أصول وضوابط كبرى هي: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق، فالتصوف إنما يكون بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة:24]، وقد نص الصوفية على أنه: لا يصلح للتصدر في طريق الصوفية إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك، وهو ما حكاه العارف بالله عبد الوهاب الشعراني في مقدمة كتابه الطبقات الكبرى (الطبقات ص5)، وقال كذلك: إن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون (لطائف المنن والأخلاق 1/ 2).

وقد نشأت الصوفية في مصر على أساس من الوسطية والاعتدال، وقد صاحبها إنشاء أول خانقاه في مصر في عصر الناصر صلاح الدين الأيوبي، وانتشرت من بعدها الخانقاوات والمدارس الصوفية في ربوع مصر فعملت على إعداد المريدين والطلاب إعدادا نفسيا وتربويا وأخلاقيا لمواجهة المخاطر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كانت تعصف بالمجتمع المسلم بين فترة وأخرى.

وتمسكا بالمبدأ الوسطي الذي قام عليه الإسلام، كانت الصوفية في مصر بعيدة عن الغلو، وتتميز بالاعتدال وتنأى عن الشطط، فقد كانت الطرق الصوفية المصرية يجمعها طابع خاص هو العناية بالجانب العلمي والخلقي.

ومع ما كان للتصوف في مصر من حياة روحية خاصة، فقد كان له تأثيره الخاص على العديد من مظاهر الحياة المحيطة به، وكان ذلك داعيا إلى الاعتماد عليه في

الدعوة إلى الله ورسوله، وهو ما ساعد الصوفية بقوة في تشكيل الهوية الدينية الوُسطية في مصر، وكان سبيلها في ذلك بساطة العرض الذي تقوم به وسهولة الانضواء تحت لوائها في ظل الخطوب التي تعرضت لها مصر خلال الفترات المختلفة، حيث كانت التكايا والزوايا والخانقاوات ملاذا آمنا للمظلومين والفقراء والضعفاء، وغدت تلك المراكز نبراسا دينيا حضاريا يتخرج فيه المسلم العامل بكتاب الله وسنة رسوله ليجاهد في سبيل وطنه ودينه، ومن ثم شكلت الصوفية جل الحالة الدينية في مصر التي اتسمت بالبعد عن الغلو والتشدد.

وقد ارتبط التصوف بحب آل البيت وإقامة الموالد وحلقات الذكر، مما ساعد على جذب المريدين إلى محبة المساجد وآل البيت، وهو الأمر الذي أسهم في بلورة الإسلام الوسطي وتشكيل الهوية الدينية، وهذه المحبة لا يشترك فيها الصوفية والشيعة فقط، بل إن المسلمين جميعا سنة وشيعة يشتركون في محبتهم لآل البيت رضي الله عنهم.

لقد كانت الصوفية -وما زالت- عاملا فاعلا وأصيلا في المجتمع الإسلامي في مصر، وهو ما يدعو الطرق الصوفية في كل زمان إلى الالتفاف حول أصول التصوف والتمسك بها، والعودة إلى دورها الرائد في الدعوة إلى الله وقيادة المجتمع دينيا واجتماعيا وسياسيا، كما كانت طوال تاريخها في مصر، ولا يضيرها ظهور بعض الفئات من المتواكلين والجهلة الذين يتكسبون من وراء ادعائهم الصوفية والانتساب إليها، فطريق التصوف جلي قوي لا يحيد عن صراط الله المستقيم رغم تهجم المتهجمين واتهام المغرضين.

***

المنهج النبوي في تربية الأمة

ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على تزكية أرواحهم وبناء شخصياتهم وتحمل مسئولياتهم الدينية والدنيوية، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك بحثهم على التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى، حتى يشعروا بعظمة الخالق وحكمته سبحانه وتعالى، وكذلك بالتأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون، لأن ذلك يملأ الروح والقلب بعظمة الله، ويطهر النفس من الشكوك والأمراض.

كما أرشدهم إلى سبل الإخلاص في عبادة الله عز وجل، وذلك لأنه من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرا، إذ العبادة غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده ولذلك قال سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء:23].

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بالحث على العبادات الظاهرة، بل ربى أصحابه كذلك على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة، فالمتدبر للقرآن المكي يجده مليئا بالحث على مكارم الأخلاق وعلى تنقية الروح وتصفيتها من كل ما يعوق سيرها إلى الله تعالى، ورسولنا عليه الصلاة والسلام القدوة الكاملة والمربي الناصح للأمة كان في غاية الخلق، فعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: «كان خلقه القرآن» (مسند أحمد 6/ 91).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض الأخلاق مع العبادة والعقائد في وقت واحد، لأن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحة في كتاب الله تعالى.

إن الأخلاق ليست شيئا ثانويا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله كما أن المظاهر السلوكية كلها ذات الصبغة الخلقية الواضحة هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير

فحسب، إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي أو حين نرى عكسه، أن نتساءل: أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك؟

وقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر والتأمل والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، فالعقل يعتبر إحدى طاقات الإنسان المهمة، وقد جعله المولى عز وجل مناط التكليف، كما يعتبر العقل نعمة منّ الله على الإنسان يتمكن بها من قبول العلم واستيعابه، ولذلك وضع القرآن الكريم منهجا لتربية العقل سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه.

ومن أهم نقاط هذا المنهج: تجريد العقل من المسلمات المبنية على الظن والتخمين أو التبعية والتقليد. ومنها: إلزام العقل بالتحري والتثبت. ومنها: دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون. ومنها: دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات وأخلاق وآداب وأسلوب حياة كامل في السلم والحرب والإقامة والسفر، لأن ذلك ينضج العقل وينميه، وتعرفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص ليطبق الشرع الرباني في حياته، ولا يبغي عنه حولا، لما فيه من السكينة والطمأنينة والسعادة والبشرية، ولأن الله سبحانه وتعالي إنما شرع ما شرع لذلك. ومنها: دعوة العقل إلى النظر في سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري: ليتعظ الناظر ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

كما حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تربية أصحابه جسديا واستمد أصول تلك التربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم وظيفته التي خلق لها من دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته على حساب طاقة أخرى. فالقرآن الكريم أرشد إلى ما أحله الله من الطيبات: وحثهم على اجتناب ما حرم الله من الخبائث، وأنكر على أولئك الذين يحرمون أبدانهم من تلبية حاجاتها على الوجه المشروع، فقال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف:32]، ولا شك أن الإنسان عندما يلبي حاجاته البدنية فبإمكانه بعد ذلك أداء وظائفه التي كلفه الله بها في الدنيا من عبادة الله، واستخلاف في الأرض،

وإعمار لها، وتعارف وتعاون مع بني جنسه على البر والتقوى، ولـذلك ضـبط القـرآن الكريم حاجات الجسم البشري، مـن الطعـام والـشراب والملـبس والمـأوى والـزواج والتملك والسيادة والعمل والنجاح.

لقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته على المنهج الكريم، مـنهج تزكيـة الأرواح، وإصلاح القلوب، وتصفية النفـوس، وتنـوير العقـول، مـع المحافظـة عـلى الأجساد ورعايتها وتقويتها لإعداد الشخصية الإسلامية الربانية المتوازنة.

***

رأي الدكتور علي جمعة

التصوف في الإسلام

من مبادئنا التي نسير عليها: أننا نؤمن بالدين الإسلامي كله، لا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض. وهذا مبدأ معتمد على الكتاب والسنة، ففي الكتاب: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة:85].

وفي السنة: لا تضربوا القرآن بعضه ببعض (ابن أبي شيبة في المنصف، ولذلك فإننا نؤمن بالكتاب والسنة، بكل الكتاب وبكل السنة، نؤمن بالمناهج التي أرادها الله لنا، ونؤمن بمراد الله من خلقه، فإذا أردنا أن نؤصل شيئا ذهبنا إلى الكتاب وإلى السنة المشرفة، ولا نفصل بينهما، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه.. (أبو داود في سننه والإمام أحمد في المسند).

ورأينا أن الإمام مسلما قد صدر في صحيحه حديث جبريل الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والذي يقول فيه عمر رضي الله تعالى عنه: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، هذه الصفات جعلته مستغربا، فمن هذا الذي جاء؟ حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، أي: أنه جلس جلسة المتأدب أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه كانت جلسة التلميذ

أمام المعلم، وجلس يسأله عن الإسلام، وعن الإيمان، وعن الإحسان، وعن الساعة، ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم في نهاية الحديث قال أتدري من السائل؟ فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم، وقد رواه البخاري أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمتأمل في هذا احديث يجد أنه يلخص دين الإسلام، لما سأله جبريل عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. ولما سأله عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. ولما سأله عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

هذا ملخص دين الإسلام، هناك عبدة ظاهرة، تتأكد بالأركان الخمسة، وقد قامت طائفة من أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ الإسلام في أحكامه.. في تشريعه.. في فقهه.. في جهته الظاهرية التي تضبط حياة الإنسان الفرد، وحياة المجتمع، وحياة الجماعة، جهته الظاهرية التي تضبط حركة الاجتماع البشري، والتي تضبط كل الجوانب الاقتصادية والسياسية، والتي تحدد العلاقات بين الناس، وهذه الأمور كلها مضمنة في هذه الأركان الخمسة: في الشهادتين، وفي الصلاة والزكاة، والصيام، والحج، والتي تمثل هوية الإسلام، ولا يجوز لمسلم قادر واع بالغ عاقل أن يتركها.

وقام علماء يدافعون عن (العقيدة الإسلامية) ويبينون للعالمين كيفية الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالتكليف والوحي، والملائكة والأنبياء والرسل، يبينون كل ذلك، ويجيبون عما خطر في بال البشر من مشكلات.. من معضلات.. من أسئلة درسوها واستوعبوها، ثم ردوا على كل أحد بلغته وبأسلوبه. في علم سمي بـ(علم الكلام) أو (التوحيد) وسمي بـ(أصول الدين)، هذا العلم الجليل هو الذي يحفظ درجة الإيمان.

لكن هذا الإيمان في مجرد تصديقه وصلته بالإسلام، لا يكفي إلا بالجزء الثالث من حديث جبريل، وهو (الإحسان)، فلابد علينا أن نؤمن بهذا أيضا، وهذا هو الجانب الأخلاقي، جانب القيم، يقول صلى الله عليه وآله وسلم عن نفسه: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (الحاكم في المستدرك)، ويقول ربه عز وجل في شأنه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4]. وهذا المقام قام السادة الصوفية عبر العصور بحمايته، وبيان هذا الطريق إلى الله، كيف تعبد ربك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك فالتصوف هو العلم الذي يحمي مرتبة الإحسان، فعندما ننشئ علما يبين للناس كيف يعبدون الله -سبحانه وتعالى- كأنهم يرونه، وكيف أنه في حالة الانحطاط عن هذه الرتبة العلية: كأنك تراه، فإنه يراك، كيف يراقبون الله -سبحانه وتعالى- وما ملامح هذه الطريق التي توصل إلى الله، وفي كل ذلك يعتمدون على الكتاب والسنة، يقول سيد الطائفة الجنيد: طريقنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

عندما سمى العلماء ما قاموا به في حماية مرتبة الإسلام بـ(علم الفقه)، وسموا ما قاموا به من مجهود في مجال بيان وحماية العقيدة الإسلامية بـ(علم العقيدة) أو (علم التوحيد) أو (علم أصول الدين) أو (علم الكلام)، كانت هذه الأسماء لم ترد على ألسنة الصحابة الكرام مباشرة، وإنما كانت أسماء حادثة، وكانت الصحابة تجمع بين كل ذلك من غير عناء، كانوا من أهل اللغة، يفهمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفوق كل ذلك فقد تربوا في مدرسة النبي المصطفى والحبيب المجتبى صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يربي بالنظرة، ينظر إلى أحدهم فيربيه.

* * *

في العصر الحاضر خلط كثير من الناس بين تصرفات الصوفية وبين التصوف، كما خلط كثير من الخلق بين أفعال المسلمين وبين الإسلام، وأفعال المسلمين في أي مكان وفي أي زمان، لم تكن أبدا حجة على الإسلام.

بل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحذر الناس من فساد الزمان ومن البعد عن السنة، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم، يبين

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الشريعة هي الأساس، وأننا سنرى فتنا، وسنرى مخالفة، وسنرى اختلافا بين الناس، يقول حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

فالحق أن المسلمين ليسوا حجة على الإسلام، ولما أمر صلى الله عليه وآله وسلم أمير الجيوش قال له:.. وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ (أخرجه الإمام أحمد في المسند).

ولذلك، فإننا عندما نتفاوض، نتفاوض باجتهادنا، فليس هذا هو كلام الله ولا كلام رسوله، إنما هذا ما فهمناه من كلام الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أجل ذلك، فإن العلماء من أهل التصوف تقيدوا بالكتاب والسنة، واجتهدوا كما اجتهد الفقهاء، وكما اجتهد أهل العقيدة والمتكلمون، اجتهدوا في هذا الفهم، لكنه مقيد بالكتاب والسنة.

نشأت الآن ناشئة تنكر التصوف، لما رأته من بعض خلل أو بدع، ممن ينتسبون إلى التصوف، ولو نظرنا إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لوجدنا أن هذا الذي فعلوه مخالف للمنهج النبوي، فلقد وجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصناما حول الكعبة فلم يهدم الكعبة، وإنما أزال الأصنام وأبقى

الكعبة، هذا هو المنهج النبوي، إنه منهج رباني، كذلك لو نظرنا إلى قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة:158]؛ فهذه الآية تبين: أن الصحابة كان عندهم حرج أن يفعلوا تلك الأفعال التي فعلها المشركون، عندما قصدوا وحجوا إلى بيت الله، وأرادوا إلغاء السعي جملة، لكن السعي من دين إبراهيم، هذا من الحنيفية... هذا بأمر الله سبحانه وتعالى، وهؤلاء المشركون قد خلطوا الوثنية بشريعة إبراهيم، فخلصها الله سبحانه وتعالى منها، وجعل شريعة إبراهيم صافية، نحج بها إلى يومنا هذا: من طواف، وسعي، ورمي، ومبيت، ووقوف بعرفة.. إلى آخر هذا، وخلصها من النواقص أو الزوائد التي أضافها الوثنيون المشركون، لم يلغ هذا الأمر، لأن هذا ليس من الإنصاف، وليس من العدل، ورسول الله صلى الله على وآله وسلم يعلمنا الإنصاف والعدل، ولذلك خلص هذا من ذاك.

وعندما سأله صلى الله عليه وآله وسلم بعض من معه، فقال له: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط (وهو اسم شجرة كان المشركون يعكفون حولها ويعلقون بها أسلحتهم)، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى لموسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} أخرجه الترمذي، فلم يكفرهم، ولم يلقهم في اليم، وإنما وضح لهم هذا من ذاك.

وعندما سمع امرأة رأته وهي تغني، فقالت: وإن لنا نبيا يعلم ما في غد – وكانت تضرب بالدف، وتندب من قتل يوم بدر– فقال: دعي هذا، وقولي بالذي كنت تقولين (أخرجه البخاري) أي اتركي مسألة أن النبي يعلم الغيب بذاته، وعودي إلى ما كنت عليه.

منهج واضح أننا إذا اختلط الأمر، لا نرمي الجميع، بل علينا أن نخلص هذا من ذاك، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وننكر البدع والانحرافات.

لكن التصوف في عصرنا الحاضر تاه بين أعدائه وأدعيائه، فهناك من يتمسك بمجموعة من البدع مدعيا أنها هي التصوف، والتصوف براء من ذلك.

التصوف هو حفظ مرتبة الإحسان، التصوف مقيد بالكتاب والسنة، التصوف له علماؤه عبر العصور، كتبوا فيه وعاشوا من أجله، وأوضحوه بألفاظ مختلفة في عصور مختلفة، تكلموا عن الزهد، وألف فيه أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة، تكلموا عن الورع، والتقوى، وأعمال القلوب، وكتب كل هؤلاء في هذا، ولكن ابتلينا في عصرنا هذا بمن يريد أن يخالف المنهج النبوي في حقيقة أمره، إلا أنه تزيا -في الظاهر- بالزي النبوي، تراه يطلق لحيته، ويقصر ثوبه، ويضع سواكه فوق أذنه وكأنه من الجيل الأول، ومن السلف الصالح، ثم تراه -في بعض الأحيان عن جهل، وفي بعض الأحيان عن غرور وكبر يخرج على المنهج النبوي، أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من كلام خير البرية، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

***

الإسراء والمعراج.. التقاء الغيب وعالم الشهادة

لم تكن رحلة الإسراء والمعراج معجزة منتهية المفعول، محددة الزمان والمكان، بل مازالت ماثلة أمامنا بما احتوته من أحداث وعبر، كما أنها مازالت منهلا عذبا تستفيد منه الأمة في معالجة قضاياها الراهنة اقتداء بالحبيب المصطفى والرسول المجتبى صلى الله عليه وسلم.

ومعجزة الإسراء والمعراج علم غيب جعله الله شهادة لرسوله صلى الله عليه وسلم، فكان الغيب مرئيا مشاهدا في عين وبصر النبي صلى الله عليه وسلم غيب تراه عينه، ويدركه عقله، ويستنير به فهمه، ويستوعبه قلبه، وتعيه مدركاته لتعلم الخلائق جمعاء أنه في أعلى مراتب الإيمان واليقين.

فالرحلة التي قام بها صلى الله عليه وسلم في إسرائه إلى بيت المقدس، ثم معراجه إلى ما فوق السماوات السبع لينتهي به المطاف عند سدرة لينتهي في دقائق معدودة ليعود فيجد فراشه مازال دافئا، كل هذا أمر لم يتكرر مرة أخرى مع بشر، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى تميز هذه الحادثة عن بقية التاريخ الإنساني جملة وتفصيلا.

وفيما يتعلق بإسرائه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء:1] إنها لحظة لطيفة لا يدركها الإنسان بحواسه، فهي معجزة زمانية ومكانية، وهي منحة إلهية وتسرية ربانية للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث تجلى علم الغيب للرسول المجتبى فأصبح علم شهادة، وذلك في انتقاله اللحظي من مكة إلى بيت المقدس.

إن معجزة الإسراء والمعراج لا تخضع لقوانين الكون إنما هي استثناء، لأن الذي خلق المكان والزمان، اختصرهما وطواهما لسيد الأنام، كما لا يمكن أن يفسر ذلك وفق قوانين الأرض، فهو خروج جزئي وكلي عن قوانين الأرض ومدارك الإنسان. وهو ما تفرد به النبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث جمع الله عز وجل له في حادثة واحدة بين هذين الخروجين. ففي الإسراء خروج جزئي وكشف محدد لعالم الغيب أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ قد أصبح من الممكن للإنسان في العصر الحالي السفر من الشرق إلى الغرب في وقت قصير، مما يؤكد إعجاز حادث الإسراء في ذلكم العصر.

ومعجزة الإسراء هي كشف وتجلية للرسول صلى الله عليه وسلم عن أمكنة بعيدة في لحظة خاطفة قصيرة، وكل من له علم بالقدرة الإلهية وطبيعة النبوة لا يستغربون من ذلك شيئا، فالقدرة الإلهية لا يقف أمامها شيء وتتساوي أمامها جميع الأشياء والمقدرات، فما اعتياد الإنسان أن يشاهده ويدركه بحواسه البشرية الضعيفة ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس أمام القدرة الإلهية، ومن جهة أخرى فإن من خصائص طبيعة النبوة أن تتصل بالملأ الأعلى، وفي هذا الأمر تجليات وفتوحات ربانية يمنحها اللطيف القدير لمن يصطفيه ويختاره من رسله.

والوصول إلى الملكوت الأعلى بأي وسيلة كانت -معلومة أو مجهولة- ليس أغرب من تلقي الرسالة والتواصل مع الذات العلية، ولهذا فقد صدق أبو بكر رضي الله عنه هذه المعجزة قائلا: إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء (رواه الحاكم في المستدرك 65/ 3) وأبو بكر الصديق يشير من واقع إيمانه العميق إلى أن هذه الحادثة ليست قصة مهولة ولا هي ضربا من الخيال، بل هي مسألة معتادة بالنظر إلى طبيعة العلاقة بين الله ورسله ومن كشف الغيب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عندما عاد وجادله المشركون في مكة غير مستوعبين لتلك المعجزة، وطلبوا منه وصف المسجد الأقصى، جلى الله له المسجد رأي العين، فأخذ يصفه لهم ركنا ركنا.

كما يتجلى في رحلة الإسراء وحدة الرسالات السماوية وأصل التوحيد، فكل الرسل جاءت بدعوة الإسلام قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة:136] وقال:

{مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج:78]، وقد التقى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة بإخوانه من الأنبياء، وصلوا صلاة واحدة يؤمهم فيها صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إشارة إلى أن هذه الأمة تتبع جميع الأنبياء وتؤمن بهم، وأن آخر الرسل موصول بأولهم.

إن الله سبحانه كما أرسل الرسل بالعهد القديم، والعهد الجديد، فقد ختمهم برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل معه العهد الأخير والرسالة الخاتمة: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران:81]، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين (أخرجه البخاري ومسلم).

لقد أصبحت هذه الرحلة رمزا أبعد وأوسع من حدود الزمان والمكان لتأكيد أن الإسلام هو دين الله الخاتم وهو الدين الذي أرسل بأصله الأنبياء والمرسلون لهداية العالمين.

إن حادثة الإسراء معجزة رسالة إلى يوم الدين، لابد فيها من الإيمان والتذكير بشرف الزمان الذي وقعت فيه، وشرف المكان الذي بدأت منه والمكان الذي انتهت إليه، وصولا إلى شرف النبي الخاتم الذي به تشرفت مفردات الوجود في هذه الحادثة وغيرها سواء الزمان والمكان والأحوال والأشخاص.

* * *

تحدثنا في المقال السابق عن معجزة رحلة الإسراء، وأوضحنا أنها مثلت خروجا جزئيا عن القانون الكوني من حيث الزمان والمكان. واليوم نتحدث عن رحلة

المعراج وهي إعجاز فريد خص الله سبحانه به سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من الخلائق.

ففي لحظة لطيفة خاطفة صعد من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، ومنها إلى سدرة المنتهى وهو ما يعد كشفا كليا للغيب، وخروجا كاملا عن قوانين الأرض، وتجاوزا لا تستطيع بلوغه حواس الإنسان ومداركه.

ومما يجدر ذكره في هذه المعجزة الكبرى أنها أخذت بيد النبي صلى الله عليه وسلم ليتجاوز عوالم الكون ومحددات الوجود، وهي عوالم الزمان والمكان والأشخاص والأحوال.

أما عالم الزمان فقد سبق القول ببيان كيف طوى الله عز وجل لنبينا صلى الله عليه وسلم الزمان بما لا تبلغه العقول ولا تستوعبه الأفهام إلا إذا أدركت تلك العقول نفحات من الإيمان.

وأما عالم المكان فإنه صلى الله عليه وسلم تجاوز كل مكان وصله مخلوق، من نبي مقرب أو ملك مرسل، حيث تجاوز السماوات السبع إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء الله عز وجل بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتجاوز أيضا عالم الأشخاص مع ما لهم من الحب والكرامة عند الله سبحانه، سواء أكانوا أنبياء أم مرسلين أو ملائكة مقربين، بداية من آدم في السماء الأولى مرورا بعيسى وموسى من أولي العزم حتى أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم، بل تجاوز الأمين جبريل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال له نبينا صلى الله عليه وسلم: أفي هذا المكان يفارق الخليل خليله؟، فأشار جبريل إلى قوله تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} [الصَّافات:164]، وبخصوص عالم الأحوال فقد فاق رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم كل المقامات، وبلغ أعلى الرتب والدرجات، فإنه تجاوز مراتب المرسلين، ومر على أحوال الملائكة المقربين الذين وصفهم الله بقوله: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء:20]، وقال صلى الله عليه وسلم عن السماوات: (ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم).. (المعجم الكبير للطبراني 3/ 201، وشعب الإيمان للبيهقي 3/ 348) ولم يتحمل جبريل أنوار جلال الله تعالى، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على تلك الأنوار وحده، ويتلقى الوحي والعلم والفضل من الله عز وجل دون واسطة جبريل، ليفضل الجميع بما تلقاه في تلك الحال،

ويتحقق تفرده كما قال سبحانه: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء:113].

ولقد ظهرت هذه المعاني كلها بعوالمها الأربعة في قوله تعالى: {وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم:7-18].

تلك كانت القضية الأولى في معجزة المعراج، وهي الخروج الكلي عن قوانين البشر وغيرهم في الحياة الدنيا، لتكون مثالًا ناصعًا وحجة واضحة لالتقاء عالم الغيب وعالم الشهادة، إظهارًا لقدرة الله تعالى ولفضل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها ننتقل إلى القضية الثانية التي تجلت في الإسراء والمعراج معا، وهي اجتماع الرسول صلى الله عليه وسلم بإخوانه من رسل الله وأنبيائه في طريق صعوده إلى سدرة المنتهى، وفي هذا تأكيد على وحدة الرسالة التي أرسلوا بها جميعا إلى أهل الأرض، وهي نشر عقيدة التوحيد وتحرير البشرية من نير عبودية العباد إلى شرف عبودية رب العباد وحده لا شريك له.

وبالنظر إلى حوار خاتم الأنبياء والمرسلين مع إخوانه من الأنبياء نجدهم قد أقروا بنبوته صلى الله عليه وسلم إيمانا منهم وحرصا على إتمام هذه الرسالة التي جمعتهم في سلسلة واحدة وهدف واحد، إذ مصدرها من الله، وهدفها التحقق بمراد الله، وغايتها الوصول إلى مرضاة الله، فالأنبياء جميعا إخوة فيما بينهم، كل منهم يؤدي دوره الذي أنيط به، ويكمل شريعة الله بما يتفق والزمان والحال الذي أرسل فيه، حتى أتى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ليكون اللبنة الأخيرة في هذا البناء الرباني، والكلمة الأخيرة في خطاب الله للعالمين، ولهذا ظهرت حفاوة الأنبياء في استقبالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يمر على أحد منهم من آبائه إلا بادره بقوله: (مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، وقال له إخوانه: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح) (رواه البخاري 1410/ 3) كما نلاحظ رفقهم في وصاياهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالرفق بالأمة وخوفهم عليها، حيث قال له الخليل إبراهيم عليه السلام: (يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها

قيعـان، وأن غراســها: سـبحان الله، والحمــد لله، ولا إلــه إلا الله، والله أكـبر) (رواه الترمذي وحسنه510 /5)، فيما أوصاه الكليم موسى عليه السلام بطلب تخفيف الصلاة من رب العزة وظل يراجعه حتى خففت من خمسين صلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.

لقد أظهرت حادثة الإسراء والمعراج حالة الحب والاحترام والتوقير بين الأنبياء جميعا، وأنه لا اختلاف بينهم في أصول دينهم، وأن همهم واحد وغايتهم واحدة، وهي عبادة الله وعمارة الأرض، وتزكية النفس، والأخذ بيد الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور العلم والرحمة والهداية. وهو أحوج ما تكون البشرية إليه اليوم، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يعود كل أصحاب دين إلى ما كان عليه نبيهم من صلاح وقيم وإرساء الحب والاحترام بين أتباع الأنبياء جميعا.

التقوى مناط العمل الصالح:

يحرص الإسلام على أهمية التناسق والتوازن بين التقوى والعمل بما يحقق نهضة الأمة الإسلامية فردا ومجتمعا، كما يؤكد أن الركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى في حياة المسلم، فالتقوى من أهم الصفات التي حث الإسلام على تحلي المسلمين بها، لما لها من أثر عظيم على حياة المسلم في الدنيا والآخرة، فهي المقصد الأعظم والهدف الأسمى من كل التشريعات والأعمال.

والتقوى في الإسلام هي مناطق جميع الأعمال الصالحة، وحين نتدبر في النصوص القرآنية والنبوية نجد النص القرآني يؤكد تلك الحقيقة، ونجد أن الله جعل الدين والتقوى والخلق الحسن مناط التشريف والتقديم في الدنيا والآخرة، فالتقوى حالة قلبية ومنزلة إيمانية رفيعة ومرتقى عال لا يناله المسلم إلا بالمجاهدة والمصابرة، ولكن ما التقوى؟ التقوى هي فعل الخيرات. التقوى هي اجتناب الشرور. التقوى

هي تحقق محبة الله ورسوله فيقلب المؤمن. التقوى هي حصول الرضا والسكينة. التقوى أن نعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله. وبهذا المعنى الشامل للتقوى نجد جميع الآيات التي تنص على عمل ما منال أعمال الصالحة يكون الهدف منها تحقيق التقوى في نفس المسلم، حيث بيّن الله تعالى أن القصد من كل ما شرعه سواء في العقيدة أو الشريعة أن تصبح التقوى صفة لازمة للمسلم، ففي ستة مواضع من القرآن يعقب الله تعالى على التشريع بقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:21]، وفي ستة مواضع أخرى بلفظ: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام:51]، ولذلك جاء الأمر بالتقويل جميع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، فقال: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ} [النساء:131]، وإذا ما تدبرنا الآيات المحكمات في كتاب الله تعالى، نجد أن التقوى هي هدف وغاية أحكام الإسلام، ففي العبادة عموما يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:21]، وبشيء من التفصيل يقول سبحانه عن فريضة الصيام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:183]، وفي شعيرة الحج يقول جل وعلا: {الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة:197]، وفي المعاملات بين الله تعالى حكمته في الأمر بالقصاص فقال: {وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:179]، ولماذا أمر عباده باتباع الصراط المستقيم والبعد عن الطرق الأخرى قال عز وجل: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:153]، وجاء الأمر النبوي بعموم التقوي في الزمان والمكان والحال فقال: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) [أخرجه الترمذي 4/ 355] فإذا تحقق المرء بالتقوى في شئونه كلها نال ثمرتها العظيمة التي تضمن له السعادة في الدنيا والنجاة والفوز في الآخرة، ومن هذه الثمرات المباركة:

1- حصول محبة الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ} [التوبة:4].

2- نزول رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف:156]، وقال: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام:155].

3- الدخول في معية الله ونصره، قال سبحانه: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:128]، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:36].

4- حصول الأمن من الخوف والحزن، قال تعالى: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف:35]، وقال: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الزُّمر:61].

5- حصول نور وبصيرة في القلب يميز بها الإنسان بين الخير والشر والحق والباطل، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال:29]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحديد:28].

6- حصول السعة والبركة في الرزق، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف:96]، وقال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:3-2].

7- تفريج الهموم والكروب، قال عز وجل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطَّلاق:4].

8- رد كيد الأعداء والنجاة من شرهم، قال تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران:120].

9- حسن العاقبة والخاتمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:128]، وقال: {مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد:35].

10- التقوى سبب في قبول العمل: قال تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة:27]، وقال: {لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}

[الحج:37]، والحاصل أن التقوى محلها القلب، وهي شعور يضع صاحبه في حالة حرص ومراقبة على سلوكياته حتى يأتي بها موافقة لما أمر الله، بعيدة كل البعد عما نهى الله عنه، وفي حالة حب يأنس فيها العبد بربه وينعم برضوانه.

د/ علي جمعة
مقالات في جريدة الأهرام.

***

العفاف الظاهر... والعفاف الباطن

دعت الأديان خاصة الإسلام إلى العفاف وهو أمر يحدث اختلافاً بين المتدينين وغير المتدينين، ومن شدة الاتفاق عليها بين أهل الأديان لم يكن أبداً عبر العصور وحتى في عصرنا الحاضر محلاً للاجتهاد بل كان محلا للاتفاق سواء أقام الشخص به في نفسه أم لم يقم، فإن الجميع يعلمون أن العفاف بكل جوانبه مأمور به على لسان الأنبياء.

1- فترى القرآن قد أمر بغض البصر عن العورات والمحرمات، قال تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور:30]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه (أورده الحاكم في المستدرك).

وقال بعض الظرفاء:

إلهي ليس للعشاق ذنب لأنك أنت تبلوا العاشقين
فتخلق كل ذي وجه جميل به تسبي قلوب الناظرين

وتأمرنا بغض الطرف عنهم كأنك ما خلقت لنا عيونا
فكيف نغض يا مولانا طرفا إذا كان الجمال نراه دينا

وقال آخر :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا:يا عباد اتقون
وأنت جميل تحب الجمال فكيفعبادك لا يعشقون

فرد عليهم الشيخ التقي الأمين السوداني فقال:

خلقت الجمال لنا نعمة وقلت لنا يا عبادِ اتقون
وإن الجمال تُقىً والتُّقى جمال ولكن لمن يفقهون
فذوق الجمال يصفي النفوس ويحبو العيونَ سموالعيون

وإن التقى هاهنا في القلوب وما زال أهل التقى يعشقون
ومنخامر الطهر أخلاقه تأبى الصغار وعاف المجون
وربي جميل يحب الجمال جمال التقى يا جميل العيون

وهذا الجدل يظهر كثيراً من النماذج المعرفية بين المتقين وغيرهم.

2- وأمر بحفظ الفرج كما تقدم، ومن هنا جاء مفهوم العورات التي أمر صلى الله عليه وسلم بسترها كما جاء في حديث بهز بن حكيم قال: حدثني أبي عن جدي قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر، قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قال: قلت: يا رسول الله فإذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: إن استطعت أن لا يرى أحد عورتك فافعل، قلت: فإذا كان أحدنا خاليا، فقال: فالله أحق أن يستحيا من الناس. (أورده النسائي في سننه الكبرى)

3- ومن العفاف أنه أمر بعدم الخلوة بين الرجل والمرأة الأجنبية إلا بطريقة آمنة والمقصود بالخلوة هنا المكان الخاص وليس المكان العام، ومعيار الخصوصية والعمومية هو وجوب الاستئذان من أجل النظر من عدمه، فالمكان الذي يجب علينا أن نستأذن للنظر إلى داخله ولا يجوز أن ندخله إلا بعد الاستئذان فهو مكان خاص، والمكان الذي لا يحتاج إلى استئذان كالطريق ووسائل النقل العامة والمساجد والمحلات العامة فهو مكان عام، ولا يسمى انفراد الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل فيه خلوة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ » (الترمذي في سننه).

4- والنبي صلى الله عليه وسلم أمر بالعفاف في الكلام فنبه معاذاً فقال: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» (الترمذي في سننه). وربنا يقول في سورة النساء: {لاَّ يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ} [النساء :148]، ولكنه بعدها حث على العفو فقال: {إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء :149]

5- ونهى صلى الله عليه وسلم من باب العفاف عن التسول والرشوة والسرقة كما نهى من باب العفاف عن السب واللعن والفحش والبذاءة، فقال: « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » (البخاري)، وقال: « لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي» (أورده أبو داوود في سننه)، وقال: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَأَيْمُ اللهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا (مسند الإمام أحمد)، وقال:« لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلاَ بِلَعَّانٍ وَلاَ بِالْفَاحِشِ الْبَذِيءِ » (مسند الإمام أحمد).

6- وعلمنا صلى الله عليه وسلم البعد عن الشبه، فعَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - أَتَتْهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فَلَمَّا رَجَعَتِ انْطَلَقَ مَعَهَا ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ فَدَعَاهُمَا فَقَالَ « إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ ». قَالاَ: سُبْحَانَ اللهِ . قَالَ: « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ » (البخاري)، كما أنه علمنا وأمرنا بالبعد عن مواطن الفتن فقال «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ » (البخاري).

7- هذا كله العفاف في الظاهر والسلوك أما العفاف في الباطن والمفاهيم فله حديث آخر قد يكون أهم وأعمق من عفاف الظاهر الذي هو في غاية الأهمية في نفسه وأرى أن فُقدنا للعفاف الظاهر والباطن يسبب كثيراً من اختلاف المعايير والرؤى ويحدث الفجوات بل إنني لا إبلاغ إذا قلت أن عدم العفاف يسد باب استجابة الدعاء من ناحية ويوقع الضغينة بين الناس من ناحية أخرى وبالجملة يغبش على القلب الذي هو مهبط الرحمات الربانية من أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، فاللهم نسألك العفاف والتقى.

العفاف الباطن

والعفاف الظاهر يؤدي إلى العفاف الباطن وكذلك فإن فقد العفاف الظاهر يؤدي إلى فقد العفاف الباطن، والعفاف الباطن نعني به مجموعة الأخلاق التي يصبح بها الإنسان إنساناً:

ومن أنواع العفاف الباطن الرحمة، والتي نراها مكررة في كلمة الابتداء "بسم الله الرحمن الرحيم" ، وفي الحديث: كل أمر ذي بال لا يبدأ بذكر الله فهو أبتر، وفي رواية "ببسم الله" وفي رواية "بالحمد لله" (الجامع الكبير للسيوطي)، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الأولية، والذي جعله المحدثون أول حديث يعلمونه تلاميذهم: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» (البخاري)، ويقول النبي صلى الله عليه سلم: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ» (البخاري).

ومن العفاف الباطن الحلم والأناة ويقول النبي صلى الله عليه وسلم لِلأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ» (صحيح مسلم)، ولقد رأينا أناسا كثيرين من خلق الله قد فقدوا هاتين الصفتين وسبب ذلك أنهم فقدوا العفاف الظاهر، ولقد بنى المسلمون علومهم على التدقيق والتحقيق والتثبت وهي صفات تنبثق عن الحلم والأناة، والحلم والأناة تجعل الإنسان يرى الحقيقة على ما هي عليه ولا يتسرع في تهمة الآخرين ولا في تأويل تصرفاتهم وأفعالهم بصورة ظالمة تخالف الواقع والحقيقة، ولا بصورة متحيزة، ولقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن التحيز في آيات كثيرة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة:8]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ} [النساء:135]، وهذا يقتضي الصدق أولاً مع الله ومع النفس ويقتضي ثانياً معرفة حقيقة الدنيا وأنها إلى زوال وأنها مزرعة للآخرة والآخرة هي الحياة الحقيقة الدائمة ولذلك نرى أن العفاف الباطني متعلق أيضاً بالعقيدة التي إذا ما فقدت فإن الدنيا بأثرها والأخلاق بجملتها قد لا تعني شيئا عند الإنسان.

ومن العفاف الباطني التواضع وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ» (صحيح مسلم)، وأمرنا ربنا سبحانه وتعالى في آيات كثيرة بهذا التواضع وانه يجب أن يكون لله، ونهانا عن الكبر حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ (سنن أبي

داود)، ويقول ربنا سبحانه وتعالى في نصيحة لقمان لأبنه والتي ربط فيها بين العفاف الباطن والظاهر: {وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ} [لقمان:17-18]، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى فرق بين المعاني الدقيقة فجعل القوة في طلب الحق ليس من قبيل الكبر بل من قبيل عمارة الدنيا، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة:54]، وقال تعالى وهو يشرح هذا المعنى كله: {أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح:29]، فنراه سبحانه يستعمل لفظ العزة ويستعمل لفظ الشدة وهو الذي نهى نهيا تاماً عن الكبر والتكبر، قال تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر:60]، وقال: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر:72]، وقال: {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ} [غافر :56]

ومن العفاف الباطن الشهامة والنجدة والنصرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولذلك نرى في واقع الناس أن الذي فقد العفاف الظاهر ليست عنده هذه المعاني ولا يلتفت إليها ولا يضعها في مكانها الصحيح ويراها نوعا من أنواع السذاجة ويجادل فيها بغير علم، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الحج :3]، وفي هذه المعاني يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلاَ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» (سنن ابن ماجه).

إن هذا كله هو من الجهاد الأكبر الذي عندما يفقد يتوه الجهاد الأصغر ويضيع والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (أخرجه البيهقي في الزهد)، وربنا يقول: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج:78]، وبشر الله النبي صلى الله عليه وسلم من ترك الجهد في سبيله بالذلة فقال: فيقول: «إِذَا

تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» (سنن أبي داود) وعلة ذلك إننا لا نستطيع الجهاد الأصغر إلا إذا رجعنا إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس ومجمعه العفاف الباطني وإذا فقدنا اجهاد لأكبر فقدنا معه الجهاد الأصغر فنظل في حيرة لا نعرف لها نهاية.

حكمة البلاء:

عندما ينزل بالمؤمن البلاء يحتاج إلى أن يرجع إلى الله ليعرف حكمة البلاء، ويعرف كيف يتعامل معه عندما ينزل. وما البرنامج الذي يسير عليه حتى يخفف عنه المصيبة وتنزل السكينة على قلبه ويتمتع بنور الصبر، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بقراءة الوحي (الكتاب والسنة).

قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك:2]، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء:35]، وقال سبحانه وتعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء:78]، وقال عز وجل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة:155-157]

ويؤخذ من هذا أن نزول البلاء امتحان وأننا نحتاج إلى معرفة الحقائق وأولاها أن هذه المحن معها منح ربانية من الجزء الوفير والغفران التام، وأن الموت سنة من سنن الله في كونه، ولكنه مع ذلك ليس فناء بل هو انتقال من دار إلى دار، من

دار الدنيا إلى الآخرة، ومن دار العمل إلى دار الجزاء، ومن دار الفناء إلى دار البقاء، ولذلك وبهذا الفهم قد كان أبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه، لا يعيش لديه ولد، فسئل في ذلك فقال: الحمد لله الذي يأخذهم مني في دار الفناء ليدخرهم لي في دار البقاء، وقال الشاعر:

لا تظنوا الموت موتا إنه لحياة هي غايات المنى

لا ترعكم فجأة الموت فهي إلا نقلة من هاهنا

وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف:34]، وقال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:26-27]

يمضي الصغير إذا انقضت أيامه إثر الكبير ويولد المولود

والناس في قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيد

قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الترمذي: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)، وقال عليه الصلاة والسلام: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (صحيح مسلم)، وقال فيما أخرجه الترمذي: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)، وقال صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا

ثم احتسبه إلا الجنة) (البخاري)، وقال: (إذا مات ولد العبد قال الله لملائكتهُ: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟، فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد) (أخرجه الترمذي في سننه)، قال الشاعر:

وإنمـــــا أطفـــــالنا بيننـــــا أكبادنا تمشي علي الأرض

إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عيني عن الغمض

فالروح باقية لا تفنى ولذلك عند رحيل الأحبة نستمر في عمارة الدنيا ونزيد من العمل الصالح ونهب ثواب أعمالنا إلى من رحل صغيراً كان أو كبيراً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه :ن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم (صحيح مسلم). ولما مات أبو وكيع بن الجراح خرج في يوم وفاته في درسه اليومي وزاد أربعين حديثاً عما كان يحدث به كل يوم، وبعدما دفن أبو يوسف ــ صاحب أبي حنيفة ــ ابنه، حضر مجلس أبي حنيفة بعد الدفن يتعلم حتى يتجاوز الأحزان. قال الشاعر:

فإذا ابتليت بمحنة فاصبر لها صبر الكـــريم فـــإنه بك أكرم

وإذا ابتليت بكربة فالبس لها ثوب السكـــوت فـــإن ذلك أسلم

لا تشكون إلى العباد فإنما تشكو الرحيم إلي الذي لا يرحم

فالمصيبة تعلمنا حقيقة الدنيا وأنها فانية وأنها متاعٌ قليل، قال تعالى: {مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء:77]، وقال تعالى: {وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأنعام:32]، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ} [الحديد:22-23] ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أسوة حسنة حيث مات أبناؤه وأحباؤه في حياته وفي كل الأعمار حتى قال عندما مات إبراهيم: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون ومات حمزة وجعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم وكانوا أحب الناس إليه فعلمنا كما علمنا القرآن: {إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة:156]، وراجعون تبين أن الموطن الأصلي للروح هو عندَ الله فمن هناك أتت تفضلاً ومنة، وإليه عادت حكمةً وفضلا.

***

مصادر الإيمان بالغيب

د/ علي جمعة

التقيت الأستاذ أنيس منصور ونحن نحضر خطاب الرئيس أوباما للأمة الإسلامية وترك حرارة الحدث وسألني عن البرزخ، وقلت له: إن مصادر معرفتنا بالغيب الكتاب والسنة، وفوجئت به في عموده اليومي مواقف يتكلم عن ولاية الفقيه وأنه ينزعج وينفر من أن يكون هذا حالنا ولذلك يقول: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، وإنه لا تزال عندنا قوة دينية تتحفز وتنتظر وفي نهاية كلمته وفجأة حشرني بصورة مضحكة حيث يقول: (هل أضرب لك أمثلة للأسئلة السخيفة والإجابات الأسخف، أدهشني والله فضيلة المفتي الدكتور علي جمعة وهو يتحدث عن مراحل انتقال الروح من البرزخ إلى مش عارف فين وكيف سألوها وقالت وسألوها، سيادة المفتي من أين لك هذا الكلام الذي لا في القرآن ولا في الحديث)، ولا أريد أن أنبه الأستاذ إلى أن لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة التي يذكرها كانت تحتم عليه ألا يتدخل فيما لا يحسنه وألاينفي ما لا يعرفه وكأنه من الحفاظ الكبار، والأمر ليس كذلك، والله أعلم بما هنالك، وعليه أن يترك الدين لأهله ولعلمائه، وأنه أكبر منهذا الحشر المضحك بين بداية المقال وآخره ، وأن الأسئلة السخيفة والإجابات السخيفة قد نزهنا الله عنها، وربنا يؤجرنا في مصيبتنا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

1- أما البرزخ وهو الحد الفاصل بينالحياة والموت الذي يمنع الأرواح من الرجوع إلى الدنيا، ففي قوله تعالي في سورة المؤمنين: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون:99-100]، وإن كان هذا النص لا يروق عقائد غير المسلمين مثل الديانات الشرقية التي تدعي تناسخ الأرواح، فهذا لا يعنيني العزيز لديه بحقائق القرآن والسنة، وتبين الآية حقيقة وجود البرزخ وأنالروح لا تعود مرة

أخرى فعلى الأستاذ الكبير ألا يندهش.ويعرفون الغيب من خلال هذه المصُادر التي يقدسونها، وأظن أن السخافة هي في قضية التناسخ وتحضير الأرواح وليس في تسلية المصاب بفقد الولد أوولا يعني أحدا من المسلمين الذين يريدون أن يسمعوا كلام الله ورسوله،

2- أخرج الإمام أحمد في مسنده (164/ 3)، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول (671/ 1) حديث (924) -واللفظ له- عن أنس: قال رسول الله صلىالله عليه وآله وسلم: (وإن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا). ورواه أيضا الإمام أبو داود الطيالسي حديث (1794) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا، ورواه أيضا الطبراني في المعجم الكبير (129/ 4) وفي الأوسط (53/ 1) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضيالله عنهم أجمعين.

وأخرج النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:... فذكر الحديث: وفيه: (فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحا من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية) أخرجه النسائي في المجتبي (8/ 4) في كتاب (الجنائز) باب (ما يلقي بهالمؤمن من الكرامة عند خروج نفسه) حديث (1833)، وابن حبان في صحيحه (284/ 7) حديث (3014)، والحاكم في المستدرك (352/ 1-353) حديث (1302). ويؤخذ من هذه الأحاديث ما استغربه الأستاذ وأنكر وجوده لعدممعرفته به فأدخل بذلك السياسة في الدين وأراد للدين أن يدخل في السياسةعلى عكس ما قرر وكرر.

3- والروح عند المسلمين وعند كل أهل الأديان لا تفنى بخلاف الملاحدة والماديين، يقول الإمام القرطبي فيالتذكرة (ص160 من طبعة مطبعة دار الفاروق): وكل من يقول: إن الروح تموت وتفنى فهو ملحد، وكذلك من يقول بالتناسخ: إنها

إذا خرجت من هذا ركبت في شيء آخر: حمار أو كلب أو غير ذلك. وإنما هي محفوظة بحفظالله: إما منعمة وإما معذبة. (انتهى كلام القرطبي).

4- وتبع الأستاذ الكبير بعض الصغار في إنكارهم تسلية المصاب إلا أنهم أراحواأنفسهم فأنكروا السنة بالجملة وأنكروا أكثر من عشرين علما ضبط بها المسلمون نقلهم وروايتهم لكلام نبيهم صلى الله عليه وسلم، وذلك فقط لأنهم لم يفهموا النصوص أو لأنهم لم يريدوا أن يفهموا، واعتبروا أن هذا الإنكار جزء من حرية الفكر باعتبار أن الحرية عندهم هي عين التفلت وليست منهجا عقليا وعلميا، وعندما حدد روجر بيكون المنهج العلمي لاحظنا أنه يتكلم عن: تحديد المصادر التي يؤخذ منها العلم، وطريقة البحث التي تتخذ في هذا العلم، وشروط الباحث، وهي بعينها الأركان الثلاثة لأصول الفقه؛ حيث تعرف مدرسة الرأي أصول الفقه بأنه: معرفة دلائل الفقه إجمالا (المصادر) وكيفية الاستفادة منها (طرق البحث) وحال المستفيد (شروط الباحث)، وهكذا أسهم المسلمون بفكرهم وتوثيقهم للمعلومات ومنهجهم العلمي في بناء الحضارة الإنسانية إلى يومنا هذا، فالحمد لله الذي جعلنا مسلمين، ويذكرني هؤلاء بالمثل العربي (ليس بعشك فادرجي) قال أبو عبيد: قال الأصمعي وغيره في هذا المثل: أي ليس هذا منالأمر الذي لك فيه حق فدعه، وقد يضرب مثلا للرجل ينزل المنزل لا يصلح له، أو كما قال عمرو بن الإطنابة:

وقولي كلما جشأت وجاشت.... مكانك تحمدي أو تستريحي

***

تخلية القلب من القبيح

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق ابن آدم وجعل له قلبًا، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلِّمنا: «إن لله تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرَقُّها» (رواه الطبراني عن أبي عنبة)، ومنع الله بحكمته أنواره عن قلوب بني آدم طالما احتوت على شيء من الصفات الذميمة والتي وضحها سبحانه في قوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران :14].

وقد أمرنا عز وجل أن نزيل الصفات الذميمة من قلوبنا، ونخليها لتبقى معلقة به سبحانه لا تتعلق بسواه، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ..» إلى آخر الحديث (متفق عليه واللفظ للبخاري).

كما أمر ربنا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا البلاغ، فيبدأ آياته فيقول: {قُلْ}، وقد ذكرها في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة وهو يأمر نبيه بذلك الفعل ليبلغ عنه سبحانه وتعالى ما يريد أن يقوله لعباده، دلالة على أن هذا القرآن العظيم من عند الله، لم يخترعه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يأتِ به من عند نفسه، ولم يزد فيه حرفًا ولم ينقص، ودلالة على أننا معنيون كذلك ومأمورون بالبلاغ، وأن الأمر ليس خاصا برسول الله وحده، لكن كذلك بالمؤمنين به وأتباعه وورثته، وكل من تلا القرآن مؤمنا به، وكأنه نزل الآن إليه من ربه، فيقول سبحانه: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:24]، فأرشدنا إلى الخروج عن دائرة الفسق حتى نتعرض لهدايته سبحانه وننال رضاه.

أيها المؤمن، إن بداية الطريق اليقظة، فيجب أن تسارع وتستيقظ من غفلتك وتعلم حقيقة الدنيا وأنها إلى زوال، وأن تصحح مسيرة قلبك مع الله، وأن تبدأ بتخلية قلبك من القبيح استعدادًا لملئه بالصحيح، وأول ما تبدأ به أن تُخرِج من قلبك ذلك التعلق بتعظيم الآباء الذين خالفوا الهداية في أفكارهم ونظمهم، وكذلك بالأموال وبالعشيرة وبالشهوات، وبكل ما سوى الله عز وجل.

وليس أن تخرج الدنيا من قلبك -كما علمنا الله ورسوله- أن تدمرها، وألا تقوم فيها بشأن قد أمر فيه الله ونهى! بل شأنك فيها ألا يتعلق قلبك بها، وألا تكون أحب عندك من الله ورسوله، كما أنه ليس معنى أن تخرجها من قلبك أن توليها ظهرك؛ فكان من دعاء الصالحين: "اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا"؛ فيجب أن نجعلها في أيدينا نستعملها لله وفي سبيل الله، بحيث لا تؤخرنا عن السعي إلى الله وعن الفعل لله وعن الترك لله؛ فإذا هي أخرتنا إذن فنحن من الخاسرين، ولابد من أن نعيد حسابنا مع أنفسنا حتى يكون هذا القلب بيتًا لله تدخله ملائكته وأنواره، وتتنزل عليه رحماته ونفحاته، ويسير أحدنا في حياته الدنيا مباركا من عند الله.

انخلع أيها الإنسان من نفسك ومن شهواتك ومن دنياك، لا بتركها إنما بعدم التعلق بها، وهو أمر عظيم يحتاج إلى خطوات، وإلى تربية، فلابد أن تربي نفسك وتدربها، والذي يساعدك على هذه التربية كثرة ذكر الله بالليل والنهار بكرة وأصيلا، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ به، قال: «لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» (رواه الترمذي في سننه).

والتخلية والتحلية التي أمر الله بها من التأمل والتدبر، فيقول سبحانه وتعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} [النساء:82]، ويقول: {لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة:22].

ابدأ أيها الإنسان من اليوم بالتخلية، وهو أمر ليس بهيِّن؛ لأنه يحتاج إلى مراقبة النفس، ويحتاج إلى معرفة المفاهيم الصحيحة، ويحتاج إلى كثرة ذكر الله، ويحتاج أن تجعل لنفسك حصة من القرآن، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكثر على صحابته من قوله: «جَدِّدوا إيمانَكُمْ»، قيل: يا رسول الله وَكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أَكْثِروا مِنْ قَوْلِ لا إِلهَ إلا الله» (رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة). ابدأ في نقل نفسك من دائرة سخطه إلى دائرة رضاه، ولا تستقل هذا العمل؛ فإنك إن فعلت ذلك نوَّر الله قلبك وفتح عليك فتوح العارفين به، وأرشدك الصواب وعلَّمك ما الخطأ، وجعل لك فرقانا، ووقاك وكفاك وهداك؛ فاللهم يا ربنا اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

***

خطوات الطريق إلى الله

يسأل كثير من المسلمين، أن الشهوات تغلب عليهم، ثم يبصرون فيستغفرون ويرجعون ويتركون، ثم فورًا ينسون ويعودون إلى الشهوات كما كان الحال، فما المخرج من ذلك؟ وقد تتكرر على الإنسان إلى أن يكاد ييأس من نفسه ومن هذا الأمر، لا أقول ييأس من روح الله فـ {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف:87]

إنما قد كثرت الذنوب وأحاطت بنا المعاصي ومالت النفس إلى الشهوات؛ ردعها المسلم فلم ترتدع، وكرر عليها فلم تفعل، وكلما ذهب بها فرارًا إلى الله والى طريق الله خالفته وعصته، ورجعت به إلى طريق الشهوات {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} [آل عمران:14]، فكيف المخرج من ذلك؟

قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب:40- 44]

آياتٌ نتلوها وكثير منا يحفظها، وقفت عندها ورأيت فيها دستورًا في خطوات إذا ما فعلته أيها المسلم أعانك على طريق الله، فقد أرسل الله لك رسولا ولم يجعله أبًا لأحد من الرجال، ليكون خالصًا في أبوته لأمته، وفيما رواه الدارمي في سننه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا لَكُمْ مِثْلُ الوالِدِ للوَلَدِ؛ أُعَلِّمُكُمْ)، وقال تعالى: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب:6] فأي شرف أعظم من هذا..!

فالخطوة الأولى: أن تجعل نفسك ابنًا للنبي حيث إن الله سبحانه وتعالى قد خلاه من الولد، وماتوا جميعًا في حياته صغارًا أطفالاً ولم يبلغوا دَور الرجولة، اعتز بنبيك اعتزازك بأبيك، بل أكثر من ذلك بكثير، بحيث لا تكون هناك مقارنة بين أبيك وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تصاب العلاقة بينك وبين أبيك بشيء من الكدر أو الفتور، لكنها لا تصاب بينك وبين حبيب الله صلى الله عليه وسلم؛ استحضر صورته أمامك بالليل والنهار، عش معه فإن هذا سيعينك بلا شك على كل خطوات الطريق إلى الله.

وبعد ما أنزلتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة المصاحب لك في كل وقت وحين، فإذ بك تستحي أن تفعل الذنب، وتستحي أن لا تكون هناك همة، وتستحي من أن لا تذكر الله أو أن تنقطع عن ذكره سبحانه وتعالى– لأن أباك يراقبك ولأنه معك ولأنه مصاحبك- تستطيع أن تتخيله، لكن لا تستطيع أن تتخيل ربك؛ لأنها وثنية مفرطة، أما هذا فهو الذي جعله الله واسطة بينه وبيننا– ولا واسطة بيننا وبينه سبحانه وتعالى، لكن لا يكلمنا– فاجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم والدك ومصاحبك.

الخطوة الثانية: بعد ذلك أن تذكر الله ذكراً كثيرا بكرة وأصيلا، (لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ الله) (مسند الإمام أحمد).

الخطوة الثالثة: أن ترى دائرة نور ودائرة ظلام، النور فيه طاقة وفيه بيان وفيه حلاوة وله طلاوة يكشف عن الحقائق، والظلام فيه برودة ورائحته كريهة وأحواله مردية، والله جل جلاله يثني عليك لإتباعك لنبيك، ولإدراكك النور والظلمة، ولذكرك له كثيرا، فينقلك من الظلام إلى النور، ومن الضيق إلى السعة، ومن الاضطراب إلى الأمن والأمان والسلام في الدنيا أولاً، يعنى ستأخذ نصيبك هنا لأن كثيرًا من الناس قد تعلقت قلوبهم بالدنيا، ولا يمكن أن نجذبهم إلى الله إلا منها، في

الدنيا سيعطيك الله تعالى، وله ملكوت السموات والأرض، ثم بعد ذلك يعطيك في الآخرة.

ثم انظر في هذه الكلمات التي لا يمكن لبشر أن يكتبها، إنما هي من عند الله {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} فسيكون فيه إعداد؛ عندما تعد لضيفك الطعام فإنك تتجهز له، بخلاف الطارق الذي يأتي من غير إعداد فإنك تقدم له ما وجد كثر أو قل، لكنه هنا فيه إعداد. والكرم حب والحب عطاء، والكرم في غير مقابل، فالله يعطيك من غير مقابل من غير حساب، والكرم مستمر، و(كريم) أي نفيس جيد غالٍ في مادته؛ فالأجر في مادته سيكون نفيسًا وفى شكله وفى مضمونه وفى أثره، وفى تلذذك به، كلمة وُصف بها القرآن "القرآن الكريم"؛ لأنه لا مثيل له، وحفظ الله سبحانه وتعالى من أن نصف بالكرم كتابًا غيره؛ فيقولون كتاب مبرور أو كتاب ثمين إلا كلمة الكريم؛ فإنها لا تستعمل في خطابات الملوك، والحمد لله رب العالمين، (كريم) هذه كلمة واحدة تجعلك تخرج من الدنيا بحذافيرها.

أيها المسلم، إذا أردت أن تُنقل من دوامة الشهوات إلى طريق الله فعليك باتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم والدًا لك، ومصاحبًا في طريقك إلى الله؛ فإنه هو المبشر والنذير، وهو المبشر والشاهد، وهو المبشر والآخذ بيدك إليه سبحانه، واذكر الله ذكرًا كثيرا، وانتقل من دائرة الظلمة إلى دائرة النور بصلاة الله وملائكته عليك، ثم بعد ذلك استحضر نفاسة أجر الآخرة في مقابلة تفاهة الدنيا بما فيها ومن فيها، فإذا فهمت ذلك واستوعبته وغيرت مفهومك عن الحياة الدنيا وعن الآخرة، واستصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم معك كل يوم- فسيعينك ذلك على نفسك في طريق ربك.

روح الشريعة الأدب :

إن روح الشريعة الأدب مع الله ومع النفس ومع الناس، وافتقد المسلمون كثيرًا من الأدب، وصارت عندهم العبادة عادة، وتخلوا عن القيم والأخلاق التي قال

عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (رواه البيهقي في الكبرى)، وهو الذي وصفه ربه فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم 4:].

تركنا رسول الله صلى الله عليه و سلم وبين لنا أصول الأدب في أحاديث أربعة: أولها: (مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ) (رواه مالك في موطئه)، وثانيها: (لا تغضَبْ ولَكَ الجَنَّة) (أخرجه الطبراني في معجمه)، وثالثها: (لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (البخاري)، ورابعها: (مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فليَقلْ خيرًا أو ليَصمُت) (البخاري) يقول أبو زيد القيرواني رضي الله تعالى عنه وهو من أئمة المالكية: هذه الأربع هي أصول الأدب.

هذه الأربعة هي أسس الخير والأدب، إذا تخلق بها المسلم كان مسلمًا حقًّا، نرى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم قد ربط الأدب بالعقيدة وقد فعَّل العقيدة في حياتنا وفي واقعنا وسلوكنا اليومي، وفعَّل اعقيدة في نفوسنا وداخلنا حتى نسيطر على أنفسنا لله رب العالمين.

انظر إلى نفسك وقد استغنيتَ عن اللغو وفضول الكلام، وقد استغنيت عن تضييع الأوقات، وقد استغنيت عن كل فعل باطل. ربط رسول الله صلى الله عليه و سلم هذا بحسن الإسلام – على الرغم من ٔنه من حسن الحياة والمعيشة – فلم يقل من حسن حياة أحدكم أو معاش أحدكم بل جعله من أصل الدين لأن هذا المؤَدَّب سيكون قد توكل على الله وهذا المؤَدَّب سيكون في قلبه رضا لله وعن الله {رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ} [البينة:8].

وهذا أدبٌ عالٍ، لا نراه في حياتنا حيث يتصدر كل إنسان في غير موضعه وعمله، فيهرف بما لا يعرف، ويتكلم بما لا يتقن، وكل ذلك محسوب عليه لا له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَلامُ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لا لَهُ إلا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ الله)(أخرجه الترمذي في سننه).

وإذا أنت فعلت هذا فإن الناس لا يتركونك، ولكـن يـستفزونك ليخرجـوك عن ذلك الخُلق، فيأتي الحديث الثاني، ويربط عدم الغضب بالجنة، والغـضب حجـاب وحائل على ذهن الإنسان يمنعه من التفكر الصحيح ومن التـدبر، ومـن اتخـاذ القـرار المناسب في الوقت المناسب، والغضب يجعل الإنسان يتهور في حياته، والغضب يجعـل الإنسان غير راض عن الله، وربنا سبحانه وتعالى يستحق منا الرضا، فهو الـذي خلـق وهو الذي أمر وهو الذي من أسمائه الصبور، والله سبحانه وتعالى يعلمنـا عـلى لـسان نبينا بل والأنبياء من قبله: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف:18]، هذا الهدوء النفسي يجعلك أكثر قدرة عـلى اتخـاذ القـرار المناسـب في الوقـت المناسـب والتصرف السليم الصحيح في الوقت المَليح.

فالأدب كما ترون يكون مع النفس، ويكون مع الله سبحانه وتعـالى، ويكـون مـع الخلـق، لكنـك لا تـستطيع أن تكـون مؤدبًـا مـع الله إلا إذا وصـلت إلى الرضـا والتسليم، ووصلت إلى التوكل الحق عليه سبحانه، والرضا والتسليم بقضائه وقـدره، والتوكل عليه فيما يكون من الأيام لا يكون إذا غضبت؛ لأنك تكون قد نسيت ربـك، ولأنك تكون في حالة قد رأيت فيها نفسك، ولأنك لا تستطيع حينئذ أن تسيطر عليها ولا أن تأمرها بما أمرك الله به، ولا أن تقف عند حدود ما نهـاك الله عنـه، (لا تغـضَبْ) ليس معناه ألا يرد الغضب على قلبك، إنـما معنـاه ألا يـسيطر الغـضب عليـك (لَـيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ) -الذي يصرع الناس بجسده القـوي وبنيانـه المتـين- (إِنَّـمَا الـشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ) (البخاري) لا يكـون في كـون الله إلا مـا أراد، فعـلامَ تغضب؟! هذا الذي غضبت منه- أوْ لَهُ- إنما هو بقدر الله...

ويأتي الحديث الثالث حتى تتعدى بخيرك إلى الآخرين، وهـذه قـد افتقـدناها فقامت في قلوبنا أنانية، نرى أنفسنا ولا نـرى النـاس، ولا يهمنـا أن نحمـل في قلوبنـا همهم، ولا يهمنا أن نحمل في قلوبنا مصالحهم، وهذه مصيبة كبرى، تفتت الأمـة التـي قال فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لينـوا في أيـدي إخـوانكم) (مـسند الإمـام

أحمد) ، والتي أمرنا حينما نقوم إلى الصلاة لرب العالمين أن نصطف صفًّا واحدًا يشير إلى قلب واحد.

ويأتي الحديث الرابع ليتمم منابع الخير وأساس الأدب، لنخلي ألسنتنا وأقوالنا وأفعالنا من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وشهادة الزور ومن اللغو، إذن فقد أصبحت مُعتَمَدًا للخير، تَعَوَّدَ الناسُ أنك لا تقول إلا حقًّا، تَعَوَدَ الناسُ أنك لا تقول الباطل، تَعَوَدَ الناسُ أنك إذا تكلمت فإنما تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر، تَعَوَدَ الناسُ أنك إنما تأمر بالخير: {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج:77].

أيها المسلم .. ارجع مرة ثانية إلى أدب الإسلام؛ فإن الإسلام كله حلاوة، وعليه طلاوة يأمر بالنظافة وبالمعروف وبالجمال، وينهى عن القبح وقلة الحياء وقلة الأدب..؛

أحاديث أربعة يجعلها لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم نبراسًا في طريقنا إلى الله، وفي طريقنا إلى الحق، وفي طريقنا في الدنيا، فاجعلوها نبراسًا لكم، ودربوا أنفسكم عليها.

***

عباد الرحمن

الله سبحانه وتعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:33] فحُمِّلنا الرسالة.. فما هي صفات عباد الرحمن الذين حملوها؟ وما هو جوهر الرسالة التي كُلفنا بأن نحملها إلى العالمين؟

ربنا يتكلم عن حزب الله وعن حزب الشيطان.. وعن حزب الرحمن وعن حزب الأبالسة؛ يقول في أولئك الذين رفعوا عبادة الله مقامها.. يقول في أولئك الذين عمروا الأرض كما أراد الله وعلى مراد الله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ} [الفرقان:63]، وهم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: خواصّ الرحمن؛ نسبهم إلى اسمه (الرحمن) وخصهم به، وبه وبنوره يمشون في الناس، فهم أعرف الناس بالحق وأرحمهم بالخلق، هم الراحمون يرحمهم الرحمن ويعاملون من في الأرض بالرحمة، وهم السائرون على قدم نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي أرسله ربه رحمة للعالمين.. عرفنا ربنا جل جلاله بصفاتهم التي بها تحققوا، وفيها ارتقوا حتى نعرفهم وأمرنا فقال: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} [لقمان:15]، عدد لهم خمس عشرة صفة إلى نهاية سورة الفرقان، تتأملها أيها المسلم وتتخلق بها حتى تكون عبدًا ربانيًا رحمانيًّا قادرًا على تحمل الدعوة للعالمين، حتى تكون مرضيًّا عنك من رب العالمين، حتى تكون حقيقًا بأن تمد يدك إلى السماء: يا رب يا رب؛ فيستجيب الله لك..

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان:63] لا يمشون على الأرض طغيانًا وتجبرًا، ولكن مشيهم بالسكينة والوقار، والتواضع والخشية.. يمشون على الأرض وهم يدركون أنها تسبح لله، يمشون على الأرض وفي قلوبهم حب لعباد الله الإنسان قبل الحيوان، والحيوان قبل الأكوان {يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} تترقرق الرحمة في قلوبهم، يتعاملون مع الكون وكأنه حي مدرك، ويتعاملون معه برفق.

عبد من عباد الرحمن ؛ يمشي على الأرض هونًا، ويعتذر لخلق الله، ويقدر حالهم من الجهل والجهالة {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} [الفرقان:63] يسلمون من الناس، ويسلم الناس منهم بصبرهم وحلمهم؛ فلا يعتدون عليهم بمثل ما يعتدى عليهم بل إنهم يصبرون لله وبالله، وفي أواخر السورة يبين الله لنا أجر الصابرين وجزاء من تحمل ألم الصبر، يصبرون لله رب العالمين وهم قادرون على الرد، وقادرون على رد العدوان بالعدوان، بل إنه قد أبيح لهم ذلك، ولكن الله رقى حالهم، وجعل الصبر أحلى وأعلى {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا}، خاطبوهم بالجهل بشأنهم وما هم عليه، أو بالجهالة عليهم والتطاول في الخطاب، إلا أنهم لا يواجهونهم إلا بالسلام، فالقول السلام يشمل الفعل السلام، فهم- رحمة بهم- يحلمون عليهم، وكأنهم يسدون عليهم موارد الفساد، وكأنهم يسدون عليهم موارد النزاع والخصام؛ فإن النزاع والخصام لا يكون معه استقرار، وإذا لم يكن هناك استقرار لا يكون هناك أمن، وإذا كان هناك اضطراب وانعدام أمن فإن الإيمان في خطر، يفهم المؤمن ذلك عن ربه في طوال القرآن وعرضه، ويقول لمن سابه أو لاعنه أو تفاحش عليه من خلق الله مسلمهم وكافرهم- وقد رأى الجهالة في تصرفه ورأى الخروج عن دائرة المعقول في فعله وسلوكه - {سَلامًا} يدعوه ويذكّره بالسلام، وهو اسم من أسماء الله تعالى..

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} [الفرقان:64] يعلمون أنه (يَتنزلُ ربُّنا تَبارَكَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يَبقى ثلثُ الليل الآخر، فيقول: مَن يَدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفِرُني فأغفِرَ له) (البخاري)..

في ثلث الليل الأخير منحة إلهية، ونفحة صمدانية، حالة ربانية يستجيب الله للدعاء فيها، وما معنى في ثلث الليل الأخير؟ معناه أنه قد هجر فراشه لله، وترك لذّته لله، وأنَّ حُبَّ الله في قلبه أعلى وأجلى وأكثر وأرجح من حب الحياة الدنيا..

مَن هذا شأنه كان قادرًا على تحمل أعباء الرسالة إلى العالمين، ومن ضبط نفسه هكذا حال الغضب مع الآخرين فقد عرف دوره في الحياة الدنيا، وعرف معنى عالمية الإسلام، وأدرك معنى الدعوة ومعنى تبليغها.

إنه ناصح صافي السريرة يعرف كيف يفهم عن ربه ما يقول له، ويعرف كيف يخاطبه..

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان:65]، فيه غُرمٌ وضياع وهلاك لازم ثابت.. {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان:65-66]، تذكروا أنه يستعيذ من عذاب الله وعقابه وسخطه، ويرى في هذه جهنم، ويرى أنها ساءت مستقرًا ومقامًا، في مقابلتها الجنة ورضا الله {حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان:76] كما سنرى في آخر السورة. هذا هو سخط الله وهذا هو رضوان الله، والعاقل عليه أن يختار، ولذلك كان الكفار ضالين {إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان:44]، وإنه ليس من العقل أن يختار الإنسان سخط ربه على رضوانه، ولا ناره على جنته، ولا عذابه على ثوابه، هو غافل والكفار كذلك في غفلة عن ربهم وحجاب..؛ {فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات:11]

ومهمة المسلم الذي هو من عباد الرحمن أن يزيل الحجاب بين الإنسان وبين ربه، وأن يدل ويرشد والهداية بيد الله؛ {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [القصص:56] (يتبع)

* * *

نستكمل حديثنا مع صفات عباد الرحمن التي بدأنها الأسبوع الماضي، فيقول سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [الفرقان:68]، فهم يَقتلون إنما عندما يكون في القتل درء للقتل، وعندما يكون في القتل نفي للقتل؛ عندما يكون فيه الحياة {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:179].

{وَلاَ يَزْنُونَ} [الفرقان:68] بل يتزوجون؛ أُبيح لكم - بشرط الطَّول والعدل- واحدة والثانية والثالثة والرابعة، وحرم عليكم الزنا {فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ} [النساء:3]؛ أما الزنا {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء:32]، وحرَّمه الله من بدايته {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى} [الإسراء :32] ولم يقل في القرآن بطوله حرم الله عليكم الزنا، بل جعل التحريم حتى من النظرة الأولى ومن الكلام بغير المعروف، ومنْ الخلوة واللمس؛ جعل ذلك كله مقدمات للزنا، وجعل ذلك كله حرامًا..

{وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان:68-70] سبحانه وتعالى يجعل هذه السيئات تتحول بتغير بيئتها إلى حسنات يوم القيامة، ويفهم هذا عن ربه من فتح الله عليه، ونمر هنا بها مرور الكرام لدقتها، ولكن فضل الله كبير، ورحمة الله واسعة؛ فتدبروا وتأملوا كتاب ربكم وعيشوا في ظلاله فظلاله وافرة.. {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا} [الفرقان:70-71]، فعبر بالمفعول المطلق للتأكيد، فالمفعول المطلق يبين الحقيقة وينفي المجاز، ويؤكد المصدر مرة بعد أخرى، فاستعمله ربنا هنا؛ فيقول: {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا} لم يسكت؛ قال جل في علاه: {مَتَابًا} أي قبول حقيقي لها، أي توبة نصوحًا مقبولة على حقيقتها، وليس فيها أي نوع من أنواع المجاز، ومؤكدة.

{وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان:72] فما الذي شاع في الناس الآن؟ على حد إخبار النبي المصطفى والحبيب المجتبى صلى الله عليه وسلم في علامات آخر الزمان أنهم (يشهدون قبل أن يُسْتَشْهَدوا) (صحيح مسلم) ويَشْهَدون بالزور، وشهادة الزور ظاهرها جميل- زَوُرَ في لغة العرب : جَمُلَ وحَسُنَ وباطنه قبيح؛ فهو كذب- ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم علينا الكذب فيقول فيما أخرجه مالك في موطئه، عن صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ) فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ فَقَالَ: (نَعَمْ) فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ المؤمن كَذَّابًا؟ فَقَالَ: (لاَ)..!.. وشهادة الزور من الكذب، وقد شاع الكذب في الناس...؛

كيف يحمل الكذاب دعوة ربه إلى العالمين؟! كيف يحمل شاهد الزور_ بشهادته هذه_ دين ربنا وهو صدق كله؟! لا يتسق ذلك ولا يكون؛ والأمر أمر هداية من عند الله، والأمر أمر توفيق من عند الله سبحانه وتعالى للعبد {وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان:72]..

{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}..فهو يمثل النفسية الراقية النبيلة التقية النقية؛ فيمر باللغو فلا يندرج فيه، يراه أمامه ويسمعه بأذنيه ولكنه لا يُستدرج إليه..

نفس عظيمة من غير كبر، نفس كريمة من غير سرف، نفس رحيمة من غير ضعف، نفس قوية من غير قسوة، نفس ربَّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت من عباد الرحمن، وعباد الرحمن إذا مد أحدهم يده إلى السماء وهي قبلة الدعاء: "يا رب"_ اهتز له الكون.

{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا} [الفرقان:73-75]..

وكأن هذه التكاليف تحتاج إلى تربية وتحتاج إلى صبر، كأن هذه التكاليف تحتاج إلى حبس النفس، كأن هذه التكاليف تحتاج إلى تغيير المعتاد.. {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا} [الفرقان:75] كما كانوا يقولونه في الحياة الدنيا للجاهلين تقوله الملائكة لهم في الجنة... {خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان:76] في مقابلة ما تعوذوا به من الإساءة في المستقر والمقام من جهنم أعاذنا الله وإياكم حرَّها ومنظرَها {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان:77]..

يا عباد الله هذا جزء من جوهر الدعوة الإسلامية (الإنسان المسلم) الذي هو عبد لله تعالى من عباد الرحمن، هذا الإنسان المسلم يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون. وكيف نبدأ ؟ فقال: " ابدأ بنفسك" (صحيح مسلم)، فابدأ بنفسك ولا تنظر القذاة في عين أخيك وتترك جذع النخلة في عينك، واشتغل بعيوبك.. وغيِّر نفسك وجدد إيمانك، وتهيأ لأن تكون مسلمًا داعيًا إلى الله، إما بقالك وإما بحالك..؛ "بلغوا عني ولو آية" (البخاري)، وتعامل مع الرحمن سبحانه وتعالى على أنه يحبك، وعلى أنه وفقك لشيء قد حُرمه الكثير..؛

***

علاقة الصحابة بآل البيت الكرام

من المجهودات الفعالة المبنية على شيء من العلم والتوثيق مؤسسة نشأت في دولة الكويت تحت عنوان [مبرة الآل والأصحاب] في سنة 2005 تهدف إلى العمل على غرس محبة آل البيت والصحابة الكرام في نفوس المسلمين، والتنبيه على دور كل من الآل والأصحاب، وقيامهم بخدمات جليلة لتحقيق هدي القرآن والسنة بما يؤدي إلى دعم الوحدة بين المسلمين جميعا.

ولهم كتاب في ذلك أعده مركز الدراسات والبحوث في تلك المؤسسة تحت عنوان [الثناء المتبادل بين الآل والأصحاب] أورد فيه ثناء أهل البيت على الصحابة، وثناء الصحابة على أهل البيت، ومما ذكر فيه أن سيدنا علي رضي الله عنه يمدح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد موته قائلا : «لله بلاء عمر، فلقد قوم الأود، وداوى العمد، وأقام السنة، وخلف الفتنة ! ذهب نقي الثوب، وقليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه، رحل وتركهم فيطرق متشعبة، لا يهتدي بها الضال، ولا يستيقن المهتدي» [نهج البلاغة ص 222 من كلام لسيدنا علي رضي الله عنه في الثناء على سيدنا عمر رضي الله عنه].

وكذلك أثنى عليه فقال: «ووليهم وال فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه».

وجاء في الكتاب كذلك ثناء سيدنا علي رضي الله عنه على سيدنا عثمان؛ ففيه روى الإمام أحمد عن محمد بن حاطب قال : سمعت عليا يقول يعني : «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» منهم عثمان.

وجاء في الكتاب كذلك ثناء الإمام محمد الباقر على سيدنا أبي بكر وعمر، ففيه : روى ابن سعد عن بسام الصيرفي قال : سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر فقال : «والله إني لأتولاهما واستغفر لهما، وما أدركت أحدا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما» [الطبقات 5/ 321]

وقد سأله عروة بن عبد الله عن حلية السيوف، فقال : لا بأس له، قد حلى أبو بكر الصديق سيفه، قلت : وتقول الصديق ؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق، نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق، فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة. [سير أعلام النبلاء 4/ 406].

وعنه أيضا رضي الله عنه قال : «ما سلت السيوف ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ولا جهر بأذان ولا أنزل الله {يا أيها الذين آمنوا} حتى أسلم أبناء القيلة : الأوس والخزرج» [بحار الأنوار 22/ 312]

وقال جابر الجعفي قال لي محمد بن علي يا جابر بلغني أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر، ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده -يعني نفسه-، لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، ولا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. إن لم استغفر لهما وأترحم عليهما. وقال : «من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة» [البداية والنهاية 9/ 211].

وجاء في الكتاب كذلك ثناء الإمام زيد بن علي بن الحسين، ففيه : روى هاشم بن البريد عنه أنه قال : كان أبو بكر رضي الله عنه إمام الشاكرين، ثم تلا {وسيجزي الله الشاكرين} ثم قال : «البراءة من أبي بكر هي البراءة من علي» [سير أعلام النبلاء 5/ 390]

وكان يقول عن الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : «ما سمعت أحدا من أهل بيتي يذكرهما إلا بخير» [تاريخ الأمم والملوك للطبري 7/ 180].

وجاء في الكتاب كذلك ثناء الصحابة على الكرام على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففيه روى البخاري في صحيحه أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه : «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى أن أصل من قرابتي».

وروى أيضا عن ابن عمر رضي الله عنه عن أبي بكر رضي الله عنه قال : «ارقبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته» [رواه البخاري].

وفي مسند أبو يعلى عن عقبة بن الحارث : «صلى أبو بكر رضي الله عنه العصر، ثم خرج يمشي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بليال فرأى الحسن رضي الله عنه يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وقال : بأبي شبيه بالنبي لا شبيه بعلي وعلي رضي الله عنه يضحك» [مسند أبو يعلى رقم 38 طبعة دار المأمون للتراث].

وجاء في الكتاب ثناء سيدنا عمر رضي الله عنه على سيدنا علي رضي الله عنه والحسين والحسين رضي الله عنهما، وفيه : ما ورد في فضائل الصحابة للإمام أحمد عن عروة بن الزبير : «أن رجلا وقع في علي بن أبي طالب بمحضر من عمر، فقال له عمر : تعرف صاحب هذا القبر ؟ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب فلا تذكر علَيا إلا بخير فإنك إن أبغضته آذيت هذا في قبره».

وفي الاستيعاب لابن عبد البر عن عمر رضي الله عنه أنه قال : أقضانا علي.

وجاء في تاريخ دمشق لابن عساكر : أن عمر بن الخطاب رضي الله لما دون الديوان، وفرض العطاء، أحلق الحسن والحسين رضي الله عنهما بفريضة أبيهما رضي

الله عنه على أهل بدر لقرابتهما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففُرض لكل واحد منهما خمسة آلاف.

وجاء في الكتاب من ثناء سيدنا عثمان على آل البيت، ففيه ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يكرم الحسن والحسين رضي الله عنهما ويحبهما وقد كان الحسن بن علي يوم الدار –وعثمان رضي الله عنه محصور- عنده ومعه السيف متقلدا به يحاحف عن عثمان، فخشي عثمان رضي الله عليه فأقسم عليه ليرجعن إلى منزلهم تطييبا لقلب علي رضي الله عنه وخوفا عليه رضي الله عنهما" [البداية والنهاية 8/ 36].

على هذه الصفة كانت العلاقة بين أهل بيت سيدنا رسول الله وأصحابه الكرام، نسأل الله أن يهدي قلوبنا إلى الحق. آمين.

***

الأنوار في القرآن

أطلق الله النور في كتابه على عدة أشياء، أطلقه سبحانه على نفسه، وأطلقه على نبيه صلى الله عليه وسلم، وأطلقه على القرآن، وأطلقه على الهداية، وأطلقه على نور الهداية والإيمان.

فالنور في القرآن على خمسة أنحاء: نور الرحمن، ونور القرآن، ونور النبي العدنان صلى الله عليه وسلم، ونور الإيمان، ونور الأكوان، ولو أن أحد الباحثين كتب رسالة يتتبع فيها النور في كتاب الله وسنة رسوله، وأثر ذلك عند المسلمين لخرج كتابا حافلا لم يؤلف مثله في الإسلام.

ونحن في هذا العصر الذي اشتدت فيه الظلمات : ظلمات الكفر والإلحاد، ظلمات الظلم والاغتصاب، ظلمات العدوان وانتهاك المقدسات لفي أحوج الحاجة إلى معرفة النور الذي تكلم عنه الله ورسوله حتى نعلم الشيء ونقيضه، وحتى نعلم ما هذا النور وكيف نتبعه ما البرنامج الذي نسير عليه ؟ نفر فيه من الظلمات إلى النور حتى يرضى ربنا عنا، وحتى نتمتع بهذه الخاصية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم بإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

إن دين الإسلام دين النور، وقد أطلق الله النور على نفسه في سورة حملت اسم «سورة النور» قال الله تعالى فيها : {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور:35].

وقد اهتدى مكتشف المـصباح الكهربـائي إلى اكتـشافه بعـد تجـارب عديـدة بسبب هذا التشبيه البليغ، حيث لفت التـشبيه القـرآني لأهميـة وجـود الزجـاج حـول المصدر المشع لنشر الضوء.

وفي هذا النور الرحماني يقول الإمام ابن عطاء الله السكندري في كتابه الـشهير «الحكم العطائية» : «الكون كله ظلمة و إنم أنـاره ظهـور الحـق فيـه» وهـو يقـصد أن الكون من حيث كونيته وظهور حسه كله ظلمة؛ لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهودربه، ولأنه سحاب يغطى شمس المعاني لمن وقف مع ظاهر حس الأواني.

وإليه أشار الششتري بقوله: لا تنظر إلى الأواني وخض بحـر المعـاني، لعلـك تراني.فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة:وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيـه، فمـن نظر إلى ظاهر حسه رآه جسماً ظلمانياً ومن نفذ إلى باطنه رآه نوراً ملكوتياً.

فقول الشيخ الكون كله ظلمة إنما هو في حق أهل الحجـاب، لانطبـاع ظـاهر الأكوان في مرآةقلوبهم وأما أهل العرفان، فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحـق، فـرأوا الكون نوراً فائضاً في بحر الجبروت فسار الكون عندهم كله نورا. وهو ما يشير لقـول الشاعر:

وإذا لم تر الهلال فسلم   لأناس رأوه بالأبصار.

أما نورانية كتاب الله الكريم القرآن المجيد فقد أثبتها ربنا له في أكثر مـن آيـة، قال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف :157]. وقال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّـورِ الَّـذِي أَنزَلْنَـا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن :8]. وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَـانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء :174].

فالقرآن الكريم نور من عدة اعتبارات فباعتبار مصدره فإن مصدره عالم الأنوار والوحي والقدس، ولذلك أمر الله في كتابه أن الإنسان إذا ما أراد أن يتصل بهذا النور أن يمسح نفسه بمسحة النور، فعليه أن يتوضأ والوضوء من الوضاءة والإنارة، وهي العبادة التي يتطهر فيها المسلم من الحدث الأصغر وذلك ليكون حاله مناسبا للنور الذي يريد أن يتلوه.

والقرآن نور من حيث لغته العربية وتهذيبه للغة العرب التي كانت مليئة بالغرائب ووحشي الكلام، وأذكر شعر ابن المطهر الحلي حيث يقارن بين القديم والجديد في لغة العرب، ويظهر من ذلك مدى تهذيب القرآن للغة العرب :

إنما الحيزبون، والدردبيس   والطخا والنخا والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها   حيث تتلى وتشمئز النفوس

أين قولك هذا جديث قديم   من مقالك عقنقل قدموس

وألفاظ القرآن نحو 1810 لفظة تمثل جذور الكلمات القرآنية، في حين أن معجم لسان العرب لابن منظور نحو ثمانين ألف مادة أعني جذرًا، أي أن جذور القرآن تمثل نحو اثنين في المائة (تماماً 2.25٪) من جذور لسان العرب، والقرآن أصغر نص مقدس، وعدد كلماته نحو 66 ألف كلمة، منها 1620 كلمة لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة، ويقول بعضهم إن الأديب الروسي تولستوي لم يكرر 4 كلمات في كتابه الحرب والسلام، فعُد ذلكُ من بلاغته وتمكنه اللغوي، فإذا صح ذلك، فإن هذا التفرد في القرآن الكريم بهذا العدد الضخم من الألفاظ غير المكررة يكون معجزة بمعنى الكلمة. تضاف إلى وجوه إعجازه التي تخرجه عن نظام كلام البشر.

والقرآن نور من حيث نقله، فقد نقل بالأسانيد المتصلة المتكاثرة التي بلغت حد التواتر الإسنادي والجملي، ولقد أورد ابن الجزري في كتابه (النشر في القراءات

العشر) أكثر من ألف سند من عصره (القرن التاسع الهجري) إلى القراء العُشرة وهـم قد نقلوا القرآن ممثلين عن مدن بأكملها كلها يقرأ كما كانوا يقـرأون، وهـذا مـا يـسمى بالتواتر الجملي؛ فلأن الناس جميعًا يقرأون القرآن في مدينة معينة بهـذه الطريقـة وبهـذا الأداء فكان هؤلاء القراء مجرد مندوبين عنهم وممثلين لقراءتهم وحافظين لطريقتهم في التلاوة وارتضاهم أهل كل مدينة لما رأوا فيهم مزيد الاهتمام وتمام العلم، فشهدوا لهـم جميعا بذلك.

* * *

ما زلنا في الحديث عـن الأنـوار في القـرآن، وقـد وصـلنا إلى نورانيـة القـرآن الكريم، فالقرآن نور من حيث معانيه، فقد اشـتمل عـلى مبـادئ عامـة تنـير الطريـق، وتنظم العقل، من تلك المبادئ القرآنيـة قولـه تعـالى : {وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى} [الأنعام: 164] وقوله سبحانه {وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَـا أُوْلِي الأَلْبَـابِ} [البقـرة: 179]، وقوله تعالى: {عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ} [المائدة: 95]، وقولـه سـبحانه: {وَأَن لَّـيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى} [النجم: 39]، وقوله تعالى: {وَمَا جَعَـلَ عَلَـيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِـنْ حَرَجٍ} [الحج: 78] إلى آخر ما هنالك من أسس ومبادئ تبين أن الضرر يزال واليقـين لا يرفع بالشك، والأمور بمقاصدها ونحو ذلك.

والقرآن نـور في مـضامينه، فقـد وصـف الأوجـاع في الـنفس البـشرية، وفي المجتمع المسلم، وبين العلاج، وقص القصص، وأثبت العقائـد، وأوضـح الأحكـام، وما فرط فيه ربنا من شيء نسأل الله أن يـشرح صـدورنا بنـور القـرآن، والقـرآن نـور لصاحبه يوم القيامة على الصراط، وسبب في ترقيه في درجات الجنة.

أما نورانية النبي العدنان صلى الله عليه وآلـه وصـحبه وسـلم، فكـان سـيدنا محمد بن عبد الله هو ذلك النور الذي ظهر فجأة في جزيرة العرب بمكة ذلـك الموضـع الذي ضم أول بيت وضع للناس في الأرض، فكان سيدنا محمد هو النور المبـين الـذي

أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، وجاء ليحقق المدينة الفاضلة، فدعا أولاً لتوحيد مصدر تلقي التعليمات.

لقد أقام النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم الدلائل والبراهين على صدق دعوته، تلك الدعوة التي لا يختلف عليها عقلاء الأرض وهي أن الصانع واحد، وينبغي أن يفرد بالعبادة وحده، كما انفرد بالخلق والإيجاد، بنى الاعتقاد السليم في الله والكون والإنسان، كون النظام الاجتماعي الفريد، كون الدولة الإسلامية تنشر الإسلام في شتى بقاع الأرض، أقام حضارة ما زالت قائمة إلى يومنا هذا تباهي حضارات العالم بكمالها ونزاهتها.

وقد أثبت القرآن نورانية النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} [المائدة: 15]، وقال تعالى: {وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا} [الأحزاب: 46].

فهو صلى الله عليه وسلم نور ومنير، ولا شيء في أن يعتقد المؤمن بذلك طالما أن الله عز وجل قد وصفه بذلك وسماه نورًا، ولقد ثبت في السنة أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقولون : إنه وجهه صلى الله عليه وسلم كالقمر [رواه النسائي في الكبرى]، وقدر أخبر صلى الله عليه وسلم أنه عندما حملت فيه أمه: «رأت نورًا أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام» [ذكره الطبري في تاريخ، وابن هشام، وصاحب حلية الأولياء].

وأكد أصحابه رضوان الله عليهم أن: «النبي صلى الله عليه وسلم عندما دخل المدينة أضاء منها كل شيء، وعندما مات أظلم منها كل شيء» [أحمد والترمذي وابن ماجه] إلى غير ذلك من آثار وأحاديث تبين أنه صلى الله عليه وسلم كان نورًا، ولا ينبغي أن ننفي أن ذلك النور كان حسيًا فليس هناك ما يتعارض مع أنه صلى الله عليه وسلم كان نورا ومنيرًا، مع أصل العقيدة، كما أنه لا يعارض طبيعته البشرية التي أخبر بها القرآن.

إن المحظور هو نفي البشرية عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا مخالف لصحيح القرآن فقد قال الله تعالى: {قل إنما أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [فصلت: 6]، فالسلامة في ذلك أن تثبت كل ما أثبت الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من حيث نورانيته

وبشريته دون تفصيل وتنظير، كما أن إثبات النور الحسي له صلى الله عليهُ وسلم لا يتعارض مع بشريته.

ومن المفيد أن نذكر فائدة هنا وهي حديث «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر» فقد حكم المحدثون بأنه حديث منكر وذهبوا إلى وضعه. قال العلامة عبد الله بن الصديق الغماري: «وعزوه إلى رواية عبد الرزاق خطأ لأنه لا يوجد في مصنفه ولا جامعه ولا تفسيره، وقال الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوى ج1 ص 325: «ليس له إسناد يعتمد عليه» اهـ، وهو حديث موضوع جزمًا ...... إلى أن قال: وبالجملة فالحديث منكر موضوع لا أصل له في شيء من كتب السُّنّة [مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر، للسيد عبد الله بن الصديق الغماري]

ولقد حكم بوضعه أكثر المحدثين كالحافظ الصغاني ذكر ذلك في كتابه الموضوعات، وأقره الحافظ العجلوني على ذلك في كتابه كشف الخفاء.

والحكم بوضع الحديث وعدم صحة نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس دليلا على فساد معناه من كل وجه، فمعنى الحديث يمكن أن يكون صحيحًا إذا كانت الأولية في الأنوار فإن ذلك لا يبعد، وعلى أن الأولية مطلقة، فهي ثابتة للقلم وللعرش على الخلاف المشهور، وقد ذكر العجلوني ذلك فقال: «وقيل الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه، أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري وكذا باقيها، وفي أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كنت نورًا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام. انتهى ما في المواهب [كشف الخفاء].

***

الحب الذي اشتقنا إليه

الحب شعور إنساني عظيم، يدل على الحياة، كما يدل على الإنسانية، وهو أحد مشتقات الرحمة وآثارها، فالرحيم هو الذي يحب، ومن أحب دل على أنه رحيم، والحب عطاء، والحب كرم، والحب حالة فريدة؛ ولذا قالوا : من أحب لا يكره، وإذا فُقد الحب دل ذلك على فقد الرحمة، وإذا فُقدت الرحمة فلا تسأل بعد ذلك عن مدى الفساد في الأرض، ومدى الظلم المنتشر ومدى التدهور المستمر.

1- إلا أن الحب في الإسلام تعدى كونه شعوراً وأحاسيس إلى كونه فريضة وواجباً، وتعدى الحب بمعناه الفردي بين الرجل والمرأة إلى معناه الشامل الذي يجعله مقياساً للحياة، وأساساً للسلوك، ومفتاحاً للأخلاق، فالحب للحياة بأشيائها وأحداثها وأشخاصها ومبادئها أمر مقرر في القرآن الكريم، ولكن بعد تحويله إلى طاقة فاعلة للخير والحق والقوة والتعمير.

2- ولنبدأ بما يحبه الله، وما لا يحبه وهي مجموعة من الآيات التي ترسم دستور الحب الحقيقي غير المزيف؛ حيث يختلط الحب حينئذ بالشهوة والرغبة ويختلط حينئذ بالمصلحة الخاصة المشبوهة في حين أن الحب الحقيقي شفاف، دائم، قد يشتمل على الشهوة دون فساد، وقد يشتمل على المصلحة دون أنانية، وقد يشتمل على الغاية دون خيانة، إنه حب اشتقنا إليه.

فيقرر القرآن حب الأشياء ولا يجعلها دليلا على الخير دائما يقول الله تعالى : {وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة :216]، ويقول سبحانه : {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص :56]، ويقول في حب المبادئ : {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُواْ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور :22]

3- فما يحب الله ؟ قال الله تعالى : {إِنَّ اللهَ يحب التَّوَّابِينَ وَيحب الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة :222]. وقال سبحانه : {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران :76]. {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة : 195]. {وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران :146]. {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة :42] {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران :159]. وقال تعالى : {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف :4].

4- فهذه ثمان صفات أخبر القرآن الكريم بأن الله يحبها في عباده، فهو يحب من عبده إذا أخطأ أن يرجع عن خطئه، حتى لو تكرر الخطأ أو الخطيئة، فهو يقبل التوبة من عبادة ويعفو عن كثير، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) [رواه أحمد والترمذي وصححه الحاكم في المستدرك]. والتوبة فلسفة كبيرة في عدم اليأس وفي وجوب أن نجدد حياتنا وننظر إلى المستقبل، وأن لا نستثقل حمل الماضي، وإن كان ولابد أن نتعلم منه دروساً لمستقبلنا، لكن لا نقف عنده في إحباط ويأس، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. التوبة فيها رقابة ذاتية تعلمنا التصحيح وتعلمنا التوخي والحذر في قابل الأيام، وهي من الصفات المحبوبة فلنجلعها ركناً من أركان الحب.

5- والله يحب أيضا المتطهرين في ظاهرهم وباطنهم، فإن كانت التوبة من قبيل الطهر الباطني، فإن النظافة من الطهر الظاهر، والنظافة في الجسد والثياب والأثاث والمكان جزء لا يتجزأ وركن ركين في عبادة الله عند المسلمين {أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة :125]، ولنجعل الركن الثاني هو التطهر، وهو معنى يمكن أن يتحول إلى إجراءات محددة في حياتنا على مستوى الأمة وعلى مستوى الجماعة، وعلى مستوى الفرد.

6- فإذا اتصف الواحد منا بالتوبة والطهر فإنه يتصف بالتقوى وهي الخوف الناتج من الحب وليس الناتج عن الخشية، فالتقي هو الذي يخاف أن يغضب حبيبه، وهو الذي يخاف على حبيبه، وهو الذي يمتنع عن كل ما يؤذيه ويسارع في هواه

لو كنت حقا حبه لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

7- وإذا كان التقي يبدأ بنفسه، فإن المحسن يتعدى إحسانه لغيره، ولذلك أحب الله المحسنين، وثواب الفعل المتعدي نفعه إلى غيره أكبر وأحسن من الفعل الذي قد يكون قاصراً. إن هذا يدل على نسق مفتوح، مفتوح على الناس، مفتوح على العالم، مفتوح على الآخر، فهذا ركن رابع من أركان الحب.

8- فإذا فعلنا ذلك فلابد من الصبر والمثابرة والاستمرار فإن (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل) [متفق عليه] والصبر صفة تتحول إلى ملكة راسخة في النفس، والله يحب الصابرين أي أنه لا يحب الحائر المتردد الذي يبدأ العمل ثم يتركه، وهو الركن الخامس من الحب.

9- والعدل أساس الملك، ولذا فإن الله يحب العدل ويأمر به ويرشدنا إلى أنه قيمة مطلقة لا تتغير ولا تتبدل كما يراها بعض من عبد المصالح وأخرج الله من حياته، فأصبح بذلك ظالماً والله لا يحب الظالمين بل يحب المقسطين هل هذه الحقيقة أصبحت لدى بعض البشر محل نظر أو مناقشة ؟ يبدو من تصرفاتهم أنها أصبحت كذلك، فعلى هؤلاء أن يدركوا أن الحبَ قد فقد أحد أركانه إذا فقد العدل ولا حقيقة للشيء بدون ركنه.

10- فإذا أضل الناس أو قدر الله عليهم حرمانهم من نعمة الحب ودخلوا في غيره من الكراهية فعلينا ألا ننساق إليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تكونوا إمعة تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن

أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا) [رواه الترمذي والطبراني في الكبير].

11- إن هذه الصفات هي التي تعد ناشر الخير والسلام، تعد المجاهد في سبيل الله : الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر الذي يريد أن يمنع الشر ويرفع الطغيان والعدوان، وحينئذ لا نجد المفسد الذي يدعي الإصلاح، ولا المرجف الذي يدعي الإسلام قال تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ} [البقرة :204-205]. ولا نجد من يلبس الحق بالباطل قال سبحانه : {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً} [الأحزاب :60-61].

(والترجمة الدقيقة لكلمة [Terrorism] هي كلمة [الإرجاف] في العربية، واسم الفاعل مرجف وجمعها المرجفون، وليس الإرهاب الذي هو بمعنى قوة الردع وليس الإفساد في الأرض، وهذا بالمناسبة من قبيل تحرير المصطلح)

التسامح مع النفس.. والعفو عن زلاتها :

النفس البشرية ليست معصومة من الزلل بل الخطأ من شيمها ويستوي في ذلك الآدميون إلا من اصطفاهم الله لرسالته فطهر قلوبهم من المعاصي وفي إدراك ذلك المعنى طمأنة للنفس وتسامح معها وحسن ظن بخالقها إن رجعت إليه وطلبت منه الصفح والغفران.. عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» (أخرجه الترمذي وابن ماجه) وهذا العفو يساعد الإنسان أن يستدرك شئون حياته بعد وقوعه في الخطأ أو المعصية ويساعده ألا يتوقف عن شؤم الإحساس بالذنب مبالغا فيه جالدا ذاته فيعطل مسيرة الحياة ويوقع الناس

في العنت والشدة وبعد الاعتراف بالذنوب والخطايا أهم ما يعتمد عليه الدين في إصلاح النفس البشرية لأنه يعيد إلى النفس المضطربة طمأنينتها وسكينتها المفقودة.. ولأجل ذلك شرع الاستغفار من الذنوب وحض عليه النبي صلى الله عليه وسلم كوسيلة دائمة تساعد المرء على التسامح مع نفسه والرضا عنها.

وتحكي السيرة النبوية العديد من القصص التي تؤكد هذا المعنى. ومثال على ذلك ما يحكيه أبو هريرة رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري ومسلم أنه قال: بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت قال «مالك؟» قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا، فقال: «هل تجد إطعام ستين مسكينا؟» قال: لا. قال: «فمكث النبي صلى الله عليه وسلم فبينا نحن على ذلك أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيها تمر والعرق المكتل– قال: «أين السائل؟» فقال: أنا.. قال: «خذ هذا فتصدق به» فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله فوالله ما بين لابتيها يريد الحرتين أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه ثم قال: «أطعمه أهلك».

فهذا الصحابي جاء للنبي صلى الله عليه وسلم يرتجف ويشعر بمصيبة مهلكة وقع فيها لا خلاص له منها. فأخذ النبي يساعده على تهدئة نفسه وإيجاد المخرج والخلاص لها فعدد عليه النبي صلى الله عليه وسلم مسالك التكفير عن هذا الذنب واحدة تلو الأخرى فلم يستطع إتيان أحدها حتى وصل به الحال أن أخذ كفارة ذنبه ليطعمها هو وعياله الفقراء مما يوضح بجلاء أن العقوبة أو الكفارة مقصورة لتصفية نفس المذنب ومساعدته على العفو عن نفسه وكذلك شرعت لأجل الندم والرجوع عن الخطيئة وقد تحقق هذان الأمران في نفس الصحابي فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه العرق وصرفه.

ويلاحظ أن مسالك التكفير عن الذنب تظهر في شكل أعمال تكافلية يعود نفعها على المجتمع كله وأن النبي صلى الله عليه وسلم ببساطته وسماحته سهل على المؤمن سبيل السكينة والعفو عن ذاته كي يقبل على عمله وإعماره الحياة بقلب منشرح غير قلق ولا متوتر.

وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لله أفرح بتُوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذ اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده» (أخرجه البخاري في صحيحه) وفي هذا الحديث تربية على التسامح مع الآخرين والفرح بعودتهم نادمين على خطئهم فالله رب العالمين يفرح بعودة عبده عندما يشعر بضآلته وعظيم جرمه في حق خالقه الذي لا يضره ذنب ولا تنفعه طاعة وإنما فرحه وشكره ورضاه راجع للعبد فضلا وإحسانا. وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم ضرب المثل البليغ وسيلة تربوية وضمنه معنى التسامح مع النفس ومع الآخرين وحض فيه المسلم على التوبة والرجوع عن الخطيئة.

***

المنهج النبوي في الذكر

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَّ ذِكْرًا كَثِيرًا} [الأحزاب:41]. وقال سبحانه: {فَاذْكُرُوا اللهَّ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة:200]. وقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهَّ وَاذْكُرُوا اللهَّ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:10]. وقال: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل:8]. وتعدد الأمر الإلهي بالذكر يؤكد أن الذكر جزء من عقيدة المسلم وجزء من يومه وجزء من حياته وجزء من هويته. وقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك من خلال برنامج يومي حرص عليه النبي ودعا الصحابة إليه لأهميته حتى يكون المسلم على صلة دائمة بربه.

ويبدأ برنامج النبي اليومي في الذكر مع استيقاظه فكان إذا استيقظ في الصباح ذكر ربه فقال: «الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردّ عليّ روحي وأذن لي بذكره» (سنن الترمذي). ثم إذا قام من فراشه قال: «أصبحنا وأصبح الملك لله» (صحيح مسلم). وكان إذا دخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث» (صحيح البخاري). والخبث بضم الخاء جمع الخبيث: وهو من شياطين الجن والخبائث جمع الخبيثة: وهي من شياطين الجن فيستعيذ من ذكرانهم وإناثهم عند دخول هذا المحل الذي تتوارى فيه الفضلات وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك» (سنن أبي داود).. وهي كلمة بليغة خفيفة على اللسان عظيمة في الميزان لها أكبر الأثر في ذكر الله على كل حين وينبغي على المسلم أن يداوم عليها فإن كثيراً من الناس على الرغم من خفة هذا العمل لا يداوم عليه ولا يذكر الله في كل وقت وحين.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته قال: «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» (سنن أبي داود). وكان صلى الله عليه وسلم إذا سافر في طريق فيه مرتفع وصعد هذا المرتفع كبر وقال: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر». وإذا كان فيه منخفض نزل هذا المنخفض وسبح وقال: «سبحان الله سبحان الله سبحان الله» كما أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال: كنا: إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال: «اللهم افتح لنا أبواب رحمتك» (صحيح مسلم). ثم بعد ذلك يشتغل بالصلاة التي تبدأ بالذكر: «الله أكبر» ولا يحدث فيها إلا الذكر «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» (صحيح البخاري). ثم ينهيها بذكر الله بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». ثم يذكر الله بعدها كما ذكره قبلها فكان يسبح الله ثلاثاً وثلاثين، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويكبر ثلاثاً وثلاثين، ثم يتم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (صحيح مسلم).

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر من سيد الاستغفار بقوله: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (صحيح البخاري).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى المساء قال: «أمسينا وأمسي الملك لله» (صحيح مسلم) وهكذا في كل حركة ولهذا المنهج الرباني والمثال الفريد في الذكر والتأسي فيه بسيد الخلق قال العلماء: إذا فقد المسلم المربي المرشد فإن مرشده الأعظم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيكثر من الصلاة عليه ولا يقل ذلك عن ألف مرة في اليوم والليلة. وعن أبي بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة. جاء الموت بما فيه. جاء الموت بما فيه» قال أبي قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت» قال قلت: الربع؟ قال:

«ما شئت. فإن زدت فهو خير لك». قلت: النصف؟ قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قال قلت : فالثلثين؟ قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت اجعل لك صلاتي كلها. قال: «إذا تكفي همك ويغفر لك ذنبك» (سنن الترمذي). فالهجوا بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليل نهار. واستغفروا الله على الأقل في اليوم مائة مرة. أسوة بالحبيب المصطفي الذي لم يفتر عن الاستغفار. وإنما استغفر ربه من غين الأنوار التي أغلقت باب الخلق. وإن كان باب الحق عنده مفتوحاً دائماً. استغفروا ربكم وتوبوا إليه. واذكروه في كل وقت وحين. فالذكر منهج المسلم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو خير الذاكرين.

***

هل الولاية تسقط التكاليف؟

فتوى للدكتور / علي جمعة

- هل يبلغ الوَلِيّ إلى حالة تسقط عنه التكاليف عندها؟

لا يصل العبد ما دام عاقلاً بالغًا إلى حالة يَسْقُط عنه الأمرُ والنَّهيُ ويُباح له ما يشاء.

ومَن زَعَمَ ذلك كَفَرَ، وكانت ولايته شيطانية.

وكذلك يكفُرُ من زَعَم أن للشريعة باطناً يُخالف ظاهرها هو المرادُ بالحقيقة، فأوّل النصوص القطعيّةَ وحملها على غير ظواهرها. كمن زَعَم أن المراد بالملائكة القُوَى العقلية، وبالشياطين القُوَى الوهمية.

فالحقيقة والشريعة وجهان لعملة واحدة، ولا حقيقة لمن لا شريعة له؛ فقد سُدَّت جميع الطرق، وأُغْلِقَت جميع الأبواب إلا باب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته.

الولاية والنبوة

- هل يبلغ الوَلِيّ درجة النبي؟ ومَن أسعد الناس بهذا الدين العظيم؟

لا.. لا يَبْلُغ الوَلِيّ درجة الأنبياء.. فالولاية لها حد الولاية، والنبوة حدها النبوة.

ولا نبوة بعد محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وهو القائل: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا اتّبَاعِي».

والسعيدُ حقا -كما قال علماؤنا- هـو المـؤمن الـصالح القـائم بحقـوق الحـق وحُقوق الخلق، المتَّبع للشريعة ظاهراً وباطناً. المُعْرِض عن زخارف هـذه الـدَّار. فهـو صاحبُ السعادة. ومن له الحسنى وزيادة.

***

على جمعة مفتى الجمهورية :

الذين يحاربون التصوف ليلتهم "أسود من قرن الخروب".

وضع عدد من مشايخ الطرق الصوفية وعلى رأسهم عبد الهادى القصبى، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، فى حضور الشيخ شوقى عبد اللطيف، وكيل وزارة الأوقاف نائبا عن وزير الأوقاف، والدكتور على جمعة مفتى الجمهورية، والسيد محمود الشريف نقيب الأشراف، والدكتور أحمد عمر هاشم، رئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب الأسبق، حجر الأساس لمبنى مشيخة الطرق الصوفية الجديد صباح اليوم السبت.

قال القصبى فى كلمته إن الأمة تحتاج إلى تضافر الجهود والوقوف صفا واحدا، مشيرا إلى أن الصوفيين جزء لا يتجزأ من أبناء هذه الأمة ويرفعون شعار بناء الأمل والثقة لبناء الوطن، فكلهم جنودا فى كتيبة عمل تحت قيادة الرئيس محمد حسنى مبارك.

ووصف الشيخ شوقى عبد اللطيف، نائب وزير الأوقاف، التصوف بأنه: "ركن ركين ولازمة من لوازم الإنسان المسلم"، مضيفا أن التصوف هو خشية من الله ومعرفة للخالق، وعلم وعمل وشريعة وحضارة وإيمان وبناء، وأن التصوف له تاريخه وجذوره منذ فجر الإسلام أخذه الرسول ، صلى الله عليه وسلم، وكان سمة من سمات الصحابة والتصوف حبا لله وعمل وأدب وجهاد، ورأينا أئمة صالحين كانوا قيمة فى التصوف، كما أن التصوف تحدث عنه الله فى كتابه الكريم، ودعا إليه الإسلام

ودعمه الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهناك أحاديث تتوعد من يهاجم المتصوفين والأزهر والأوقاف يحتضنان التصوف وعملان على نشره.

من جانبه قال السيد محمود الشريف، نقيب الأشراف: "إن النقابة تتبرع للمشروع بـ100 ألف جنيه"، مؤكدا على أن الأشراف والصوفيين صف واحد يعملون من أجل خدمة الوطن.

أما الدكتور أحمد عمر هاشم، رئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب السابق وعضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية، فقال: "إن إقامة مثل هذا الصرح يمثل أملا، لأنه يعد أول بناء لمشيخة الطرق الصوفية منذ صدور القرار الجمهوري والقانون 118 محملا جميع المسؤلين فى مصر وعن التصوف بناء ذلك المبنى"، مشيرا إلى أن التصوف هو الوحيد من بين كل الأفكار والاتجاهات الدينية، بخلاف الأفكار الأخرى كالسلفية وما تحتويه على بعض المغالاة فى الدين، هو الاتجاه الديني الوحيد الذى لا يستطيع أحدا أن يقول فيه تطرف أو انحراف، موجها كلمته إلى مجلس الوزراء ووزير المالية قائلا: "إن لم تعملوا على ارتفاع شأن التصوف وبناء المبنى الخاص بها فستكونوا قصرتم، لأن التصوف الإسلامى الصحيح لا انحراف فيه ولا غلوا ويسير على كتاب الله فى مصر بلد الأزهر".

وقال الدكتور على جمعة، مفتى الجمهورية: "إن الله من على مصر بأن وجد الإسلام بها ونرى الأزهر الشريف لا ينتمى إليه إلا من كان أشعريا أو صوفيا، فالتصوف رسالة من الرسائل التى يحافظ عليها المصريون، وهو الذى يعطى الشريعة وسطيتها والإسلام روحه ولهذا الدين معناه، ولقد عجبنا ممن يحاربون التصوف فكانت ليلتهم ظلماء وليلتهم أسود من قرن الخروب، وفى نهاية كلمته أعلن عن تبرعه بـ100 ألف جنيه من جيبه الخاص".

نقلا عن " اليوم السابع"

***

"على جمعة":

التصوف برىء من بدع الموالد

أكد الشيخ محى الدين الإسناوى -باحث صوفى- أن التصوف لا يمت بصلة إلى سلوك أصحاب الموالد الذين يبتدعون ويبتعدون عما جاء فى الكتاب والسنة، مشددا على أن التصوف هو سر الله لا يمنحه إلا للذاكرين العابدين الذين يتمسكون بكتاب الله وبسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعقب عليه مفتى الجمهورية الدكتور على جمعة، خلال رئاسته للجلسة الختامية لمؤتمر التصوف الذى يختتم أعماله اليوم، نافيا أى علاقة بين التصوف وبدع الموالد، داعيا المتصوفين إلى التمسك بصورة التصوف الصحيح الذى عمل بها الأئمة السابقون، وألا يحيدوا عن صحيح الكتاب والسنة.

وطالب الدكتور على جمعة الصوفيين بالبحث فى العلوم الشرعية حتى يكونوا نبراسا ربانيا لغيرهم ولأتباعهم، لافتا إلى أن أحد أئمة التصوف ألف كتابا عظيما فى البيوع لمجرد أنه سئل فى مسألة فقهية صغيرة فى هذا العلم.

***

حوار مع على جمعة

«المفتي ما هو إلا صنايعي يقوم بإصدار الفتاوي من خلال الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وإجماع الفقهاء وعليه مراعاة مآلات الفتوي وتكييفها مع الواقع ومصالح العباد.. ونحن كالذين يسيرون على الحبال لا نريد أن نغيب عن عصرنا وتراثنا»، هكذا وصف الدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية طبيعة منصبه الذي يثير الكثير من المشاكل والأزمات.

جمعة لم ينف أنه صوفي وقال: «مصر كلها صوفية حيث يوجد بها [illegible] مليون صوفي.. والمهم في ذلك هو تحديد معني الصوفية بإخلاء القلب من القبيح وتجميله بالصحيح.. والصوفية ضرورية لمواجهة الإرهاب والتطرف».

السياسة عنده نوعان: حزبية لا علاقة لرجال الدين بها من قريب أو بعيد ولا يدخلون أطرافًا فيها، ونوع آخر يقوم علي رعاية شؤون الأمة وهو ما يجب الاشتغال به مؤكدًا أنه لا يتعرض مطلقًا لأي لون من الضغوط السياسية في إصدار الفتاوي.

وأعرب جمعة عن دهشته من استغراب البعض لرؤيته الرسول صلي الله عليه وسلم في اليقظة متسائلاً عن الغرابة في أن يري المسلم النبي صلي الله عليه وسلم في اليقظة.

«المصري اليوم» التقت الدكتور علي جمعة.. وحاول المفتي كثيرًا تجاوز أزماته الأخيرة وفتاواه المثيرة بالتركيز علي طبيعة عمله.. ورصيد دار الإفتاء التنويري علي

مدار ما يزيد علي مئة سنة.. لكننا حصلنا منه علي تعليقات وافية في الحوار التالي، عن فتاواه هذه .. وكذلك الفتاوي التي مازال يجهز لها.

* هل كرسي الإفتاء صعب؟

- الإفتاء يمكن أن يكون نوعًا من العبادة حينما يكون لوجه الله تعالي، وعندما يكون علي خطوات صناعته لأن الإفتاء صناعة تتكون من أربعة أشياء: تصوير المسألة ثم تكييفها ثم الحكم فيها ثم إيقاعها علي الواقع، وكل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلي علم وقيم وتدريب، يعني لو قلناها بالإنجليزي تحتاج Learning and training and education وإذا لم يكن المفتي صنايعيا فإنه يكون قد جانبه الصواب أي لم يفعل الصواب، فهذه المهنة تتحول إلي عبادة وهذا الكرسي يصبح شيئًا نبتغي به وجه الله عندما نحافظ علي الإخلاص والصواب أي إخلاص النية لله تعالي، والصواب باتخاذ مقتضيات الصناعة حتي يكون صنايعيا.

* هل فضيلتك ولي أمرنا في الدين؟

- ليس في الإسلام رجال دين أو مشرع، الحاكم في الإسلام واحد فقط وهو الله، وهذا مقرر في أصول الفقه ومجمع عليه بين طوائف ومذاهب المسلمين كلهم بأن الحاكم هو الله ورسول الله صلي الله عليه وسلم يترجم عن الله، والعلماء يجتهدون لمعرفة حكم الله، فإذن هذه المسألة ينبغي أن تكون واضحة قبل الإجابة عن هذا السؤال.

لذلك ما معني ولي الأمر حتي نحدد الأمور، المفتي يبذل مجهوده، كيف يبذل مجهوده؟ يوصل لك بيان الحكم الشرعي وهو أولاً يراجع المصادر وهي الكتاب والسنة ويراعي الإجماع الذي حدث حتي يكون دقيقًا في معرفة ما إذا كان الحال الذي عليه هو نفسه في القرآن والسنة، ويسير في هدي ونور كلام الأئمة عبر القرون وهناك

دائرة المذاهب الأربعة السنية نبدأ بها ثم دائرة بقية المذاهب المعتمدة الزيدية والجعفرية والإباضية والظاهرية ثم دائرة للفقه الأوسع نحو [illegible] مذهبًا وهذه الدوائر يسير فيها المفتي واحدة واحدة.

المفتي عنده دائرتان الأولي دائرة الداخل الإسلامي والأخري دائرة الخارج يعني العالم من حولنا ونحن جزء منه، أو يمكن أن نقسم المسألة تقسيمًا آخر وهو دائرة الخبر ودائرة العمل الأولي لا يترتب عليها عمل فحينما يسألني سائل أين حديث «إنما الأعمال بالنيات» فأقول له رواه البخاري فهذا لا يترتب عليه عمل وهذه ليست فتوي، أو يسألني في الخبر هل الحادثة الفلانية حدثت أم لا؟ أسئلة من هذا القبيل كثيرة، مرة واحد سألني هل النبي صلي الله عليه وسلم تزوج من مارية القبطية؟ فاعتبرت أنها ليست فتوي لأنها من قبيل الخبر فلم أجبه فرفع علي قضية متهمًا إياي بالتقصير في الإفتاء، لأنه مسكين لم يعرف الفرق بين الإجابة عن السؤال المردود علي دائرة الخبر والسؤال المردود علي دائرة العمل.

ولذلك ترانا دائمًا نحاول جادين ومجتهدين في أن نراعي مقاصد الشرع ومصالح الناس وطبيعة العصر في دائرة العمل ومنها نبني جسورنا مع من حولنا في العالم، أما دائرة الخبر فلا نحاول أن نتدخل فيها كثيرًا لأن هذا قد يؤذي الشعور الديني ويحدث من الأضرار المترتبة علي ذلك بل ومن ذهاب هيبة المرجعيات والثقة فيهم والصدق معهم إلي أن يذهبوا إلي المتطرفين والإرهابيين وإلي آخره.

فنحن كمن يسير علي الحبل لا نريد أن نغيب عن عصرنا ولا نريد أيضًا أن نقدح فيما هو لدي الناس من هياكل مردودها إلي الخبر وهذه الموازنة قد لا يدركها كثير من الناس وهم يتكلمون عن قضية الإفتاء والآراء وفوضي الفضائيات .. كثيرًا ما يخلطون بين الدائرتين إنما الصناعة الصحيحة تجعلنا نفرق بين الدائرتين وإذا تقرر

هذا فأنا الجهة الرسمية التي ارتضاها ولي الأمر من أجل أن تبين وتفتي وعندما اختارني تم ذلك وأنا عضو في مجمع البحوث الإسلامية وعضو مجمع منظمة المؤتمر الإسلامي ومجمع مؤسسة آل البيت بالأردن ولست عضوًا هنا فقط ولست مختلسًا علمًا لم يكن لي، إنما ولي الأمر عندما وضعني هنا وضعني وأنا أستاذ في الجامعة ومن هنا وليس مدحًا في نفسي ءإنما تقرير لقضية أن هذا هو الوجهة الرسمية.

* ما مدي إلزامية الفتوي؟

- الفتوي لا تلزم القضاء وهي أصلاً غير ملزمة لكنها موجهة ولذلك فالعلاقة بين المستفتي والمفتي هي علاقة قبل كل شيء أدبية، فإذا افتقد المستفتي كل المفتين والوصول للحق أصبح هذا ملزمًا لأنه لم يجد إلا هذا، فقضية الإفتاء في ذاتها ليست ملزمة وإنما يعرض عليها قضية الالتزام في عوارض أخري تحيط بها.

* هذا يعني أن الكلام الذي أثير عن التبرك «ببول» الرسول لا علاقة له بالعمل وإنما بالخبر؟

- أتمني دائمًا أن ترجعوا لما كتبته عن مصر الخير والشخصية الاعتبارية وكيفية بناء الأحكام حولها ونرجع لقضية تطوير الحرف العربي.. أنا طورت الحرف العربي في الطباعة، وخاصة الطريقة التي تمت بها طباعة مصحف الملك فؤاد واستطعنا بعد أبحاث كثيرة لمدة سنوات أن نفك شفرة هذه الطباعة،

حيث إن أصولها غير موجودة بين أيدينا حالياً فاستطعنا فكها ونكتب بها الكتب وما ترجمناه من الغرب وهذا جهد جبار كان ينبغي الالتفات إليه، لأنه يتعلق بالعمل، بحثنا في التجليد ووصلنا إلي غايته وقمته مع المماليك فجعلناها نقطة الانطلاق، بحثنا في الزخرفة ووصلنا في الزخرفة إلي نقطة عليا عند العثمانيين، بحثنا في الخط العربي ووصلنا إلي القمة فيه ثم بعد ذلك أنشأنا مؤسسة لتدريس وتطوير

والاستعانة بالكمبيوتر لنشر هذا، وجعله شعبياً حتي يعود الجمال لعين الإنسان المسلم ويحدث ما يسمي التواصل.

* كلام فضيلتك يعني وجود خلل، ولكن بصراحة هل تشعر أن هناك حملة فيها تنظيم ضدك؟

ـ عقلي يقوم علي «لا حول ولا قوة إلا بالله» وهذا يمنعني في أصل عقيدتي من تبني نظرية المؤامرة فلن يكون في كون الله إلا ما أراد وأنا بتكوينتي العقائدية والخلقية أري في كل محنة منحة حتي إنني أري أن مصيبة الموت بها منحة أخري تجعل الإنسان يصبر ويرتاح من عناء الدنيا بعد التعب الكثير، لو تخيلنا أن الناس كلها عاشت وكبرت في السن فأصبحت عبئاً علينا، لأن جد جد جد جدي عايش ولازم أرعاه فهنا الأرض لا تعمر والموت مصيبة بلاشك وقال عنها المولي عز وجل «فأصابتكم مصيبة الموت» وبه معان أخري فيه الوفاء والتألم لفراق الحبيب والعشير.

* ما معني أن تشترك الصحف القومية نفسها في الحملة ضد فضيلتك؟

ـ القضية هي خلط الدائرتين، الخبر مع دائرة الإفتاء وحينما نخلط بينهما يحدث مثل هذا، فإذا صدق هذا الخلط ينبغي أن تحدث هذه الضجة، أتذكر محيي الدين ابن العربي، كان يسير مع صديق له ثم كان الأولاد الصغار يلاحقونه ويقولون له: يا كافر يا كافر، فقال له صديقه: عرفهم بقدرك، وأنك عالم وغير كافر، فرد قائلاً الصورة الذهنية عندهم كافر فعلاً. فأنا لما أقصد أقول لهم أنا مش كده يعني هذه الحاجات صحيحة وهذا أحد أنواع الصبر الجميل طالما الصورة الذهنية عني عندك كده، فهذا وحش قوي، لكن علي فكرة أنا مش صورتي كده في حقيقتي وهذه تحتاج إلي جلسة وشرح وتفصيل لا تتيحه الجدلية الصحفية الحديثة.

* هل أحد من داخل المؤسسات الدينية يستهدفك؟

ـ لا، كلهم أصدقائي وأساتذتي ونحن نعمل معاً وهذا شيء واضح للعيان وقد يكون شيئاً فريداً أن المؤسسة الدينية الآن تعمل علي قلب رجل واحد، ولكن في فترات سابقة حدثت نزاعات ما بين مشايخ الأزهر ووزراء الأوقاف والوزراء ورؤساء الجامعة، أما الآن فشيخ الأزهر ووزير الأوقاف ورئيس جامعة الأزهر والمفتي نحن جميعاً علي قلب شخص واحد.

إنها شائعات وغيرها لكن لا يوجد أحد يصطدم بالآخر.

* أكثر شائعة صدرت الفترة الماضية أن فضيلة المفتي ربما يكون مرشحاً لمشيخة الأزهر، وهذا سبب الصراع الخفي وغير المعلن؟

ـ خليني أكون صريح، أخرج الإمام مسلم في المستقيم حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم «كفي بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» وهذا للعقل المستقيم.

كتبت عدة مقالات في هذا المعني أحدها تحت عنوان ألا ينسب لساكت قول «تقديم المسموع علي المرئي» نحن في النهار الآن وقلت لك نحن في الليل فهذا خلل في التفكير.

لا أريد أي لغط حول أي شيء ولا أريد أي دنيا لذلك، القضية أن كتاباً لم يفهم في سياقه وفيه جزء نُحي به من دائرة الخبر إلي دائرة العمل وهو ليس كذلك فلا بأس أن أسحب الكتاب وليس عندي أي مانع، لا نفسي ولا واقعي في ذلك، وقمت بإبلاغ مجمع البحوث الإسلامية بذلك قبل الجلستين الأخريين، وليس عندي أي مانع من سحب أي كتاب حينما يسير لغطاً غير مقصود علي حسبان الخلط بين الدائرتين.

* كتاب «البيان لما يشغل الأذهان» الذي تقدم الشيخ يوسف البدري بسببه ببلاغ للنائب العام يطالب بسحبه من الأسواق.. هل ستسحبه؟

ـ أمره لله، ولن أسحبه، وهذا الكتاب قديم ولم أعلم بهذه القضية، حينما أفتيت بفتوي جواز عمل المسلمين بالعقود الفاسدة في الدول غير الإسلامية ومع غير المسلمين، كتب الدكتور عبدالعظيم رمضان فيه مقالاً بأننا قد وهبنا محمد عبده جديداً وهذه الفتوي تخفف علي المسلمين وهي مذهب الحنفية وكون إنسان لا يري هذا أو أن قلبه أو عقله لا يسمح له بهذا فهذا شأنه، فهذه فنيات، هذا الكتاب مصنوع للقضاء علي التطرف والإرهاب.

الذي يحدث أن الولد يأتي ليقول مجموعة من الأشياء مبنية علي الجيل الأول من التطرف وهذه الأشياء مبنية علي أننا في مصر مجموعة من المشركين ويراق الدم في الشوارع، فقلت لهم لا، وألفت كتاباً من أجل هذا، فيأتي ويقول إن الحلف بالنبي صلي الله عليه وسلم شرك، فنبين له أن هذا ليس كلام العلماء والفقهاء، ويقول زيارة الأضرحة شرك والضريح الذي بني عليه المسجد شرك، والإنسان لا يجوز له أن يعيش في بلاد غير المسلمين ويسمونها بلاد الكفر أو الحرب، فأوضحت في الكتاب أن كل هذا ليس المسلم المعاصر، هم عكسوا ابن تيمية، لأنه وقف مع الحكام ضد التتار،

بينما هم وقفوا مع التتار ضد الحكام، وتكلمت في هذا الكتاب بما يمنع الإرهاب، لأننا نشتغل في صناعة لمواجهة التطرف والإرهاب، فإذا المثقفون وقفوا مع الإرهاب من حيث لا يقرون يكون هناك خلل وأقول اقرأوا هذه الأمور من مداخلها الصحيحة، لأنها تتعلق بأمن مجتمع وأمن أمتنا وأولادنا وأحفادنا، لازم نمشي صح، والإسلام في مصر بخير وله أدلة وأي تيارات أخري تأتينا من هنا أو هناك تكون بدايات بذور الشر فإننا نفرغها من مضمونها وينبغي علينا جميعاً أن نتعاون في ذلك ونقف وقفة شخص واحد، لأن المسألة ليست هزاراً، لأنه إذا حدث في هذا المجال فراغ فلن يبقي فراغ، وإنما سيتجهون للاتجاه الثاني مباشرة ولن يبقي علي ذلك مطلعاً، فإما أن يكون عندي إيمان بما عليه الأزهر والعلماء، وما عليه الأئمة الأربعة عبر التاريخ وما هو شائع من طنجا إلي جاكرتا وإلا فيتم تبني الاتجاهات المتشددة التي لها مصالح وأهداف أخري.

* هل خلط الدين بالسياسة جزء من ملء هذا الفراغ وهل يمثل ذلك خطـراً علي المجتمع؟

ـ هذا السؤال سابق علي الحالة التي نحن فيها الآن نحـن في حالـة أكثـر بـلاءً وخلطنا الدين نفسه بمشاربه المختلفة قبل ما نصل لأي شيء آخر.

* وجهة نظر فضيلتك في الإخوان المسلمين كجماعة سياسية؟

ـ بلاش الاستدراك ده في هذه الجزئية، لأننـي لا أريـد الـدخول في ثنائيـات، لأن مهمتي عدم الدخول في ثنائيات حتي يكون الإفتاء في محله الصحيح.

* تبرير فضيلتك لهجوم وزير الأوقـاف عـلي فتـوي التـبرك بـشرب «بـول» الرسول؟

ـ هذا يرد به علي توجه عند المثقفين، ولكنه لا يهاجمني وإنما يقول رأيه، وليس معني أننا علي قلب رجل واحد أن نتفق تماماً في الآراء، فهو لم يهاجمني وإنما أبـدي رأيـاً مخالفاً في هذه القضية.

* هل فضيلتك صوفي؟

ـ كل مصر صوفية ولدينا في مصر ▯ مليون صوفي والصوفية هـي الـصفاء أي أن الإنسان صافي القلب وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يـراك، الـصوفية معناها التخلية والتحلية أي تخلية القلب من القبيح وتحليته بالصحيح هـذا هـو الـذي نريده وهو قضية التربية وكلها تهدف إلي إنشاء الإنسان الرحيم الـذي يخلـو قلبـه مـن الحقد والحسد والتكبر ونملؤه بضدها وكيف يكون متعلقاً بالله تعالي ويـساعد النـاس ويكون نافعاً في المجتمع.

* هل الصوفية صيغة مناسبة للدين في مصر بالنسبة للدولة؟

ـ هناك تفسيرات سياسية أفعوانية لأمور متعلقة بالإنسان، والإنسان أكبر من هذا، فهو يعبد الله ويذكر أن هناك جهة تستغلة أو لا تستغله، لذلك نري أن هذه الأمور تختلف باختلاف العصور والظروف، ولم أدخل اللعبة السياسية حتي أري الإجابة عن هذا السؤال، وقضيتي أنا أن الإنسان يكون طيباً محباً للخير.

* ما الفتوي التي لم تكوّن فيها رأيا كاملاً حتي الآن؟

ـ هي اختلاف الأحكام المتعلقة بالشخصية الاعتبارية عن الأحكام المتعلقة بالفرد الطبيعي، فعصرنا فيه شركات عابرة للقارات وبنوك وهكذا، فأصبح هناك كيانات تعبر عنها بالشخصية الاعتبارية.. فهل يا تري نفس الأحكام المتعلقة بهذه الشخصية هي نفسها المتعلقة بالفرد العادي أم أن هناك اختلافاً؟ وما أصول هذا الاختلاف؟

* كيف يتم إصدار الفتوي؟

ـ أصل الفتوي بها ٤ أركان هي المصادر، والواقع الذي نسقط عليه الفتوي، وكيفية الوصل بينهما، فإن الواقع جزء من الفتوي وركن من أركانها، والوصل يتم عن طريق دراسة المصالح والمقاصد الشرعية ودراسة المآلات: ماذا ستؤول إليه هذه الفتوي؟.. ودائماً ما نتحري ذلك لأن هذه أصول الفتوي.

* هل هناك ضغوط سياسية في إصدار بعض الفتاوي؟

ـ لا إطلاقاً وكل المفتين يشهدون بهذا، نحن معنا ١٢٠ ألف فتوي منذ عام ١٨٩٥ إلي يومنا هذا ولا توجد فتوي فيها أيدت ورسخت شيئاً يتعلق بالحاكم أو بالحكومة، ولما تتكلم مع من يعتقدون غير ذلك، يضربون لنا مواقف بأن واحداً

خطب خطبة فهل هي فتوي؟ أو كتب مقالاً فهذه كلها ليست فتاوي.. الحقيُقة أنني لم أجد مطلقاً أي لون من الخلط بين الفتوي والسياسة وعلي مدي ١١٢ سنة لم يحدث أي تأثير أو ضغوط سياسية، وإن كانت الشائعة غير هذا، والذي ندعو إليه هو التثبت والحقيقة.

* هل تري فضيلتك أن الصوفية متغلغلة في الأزهر؟

ـ الصوفية، أنا أراها لابد منها حتي نقاوم الإرهاب لأن التوجهات المتشددة التي تريد إلغاء ثلث الدين وهي مرتبة الإحسان والتربية في منتهي الخطورة، ولابد علينا أن نؤكد علي ذلك، وإنما من كثرة الهجوم علي التصوف والانحراف به عن معناه ومقصده أصبح كلمة حولها لغط، بحيث يتقبلها كل شخص بمفهوم مختلف سواء بصورة جيدة أو غير صحيحة، فأنا أتقبلها علي أنها مرتبة الإحسان وغيري يتقبلها علي أنها مجموعة من البدع والخرافات، فلابد علينا من الاهتمام بالتربية والأخلاق والقيم والإنسان، ونرجعه مرة أخري إلي الإنسانية وليس إلي أنه قطعة لحم موجودة في المجتمع.

* فتوي فوائد البنوك تحتاج لرأي يقنع الناس فهل تفكر فضيلتك في ذلك؟

ـ بالنسبة لفوائد البنوك قريباً إن شاء الله وبناء علي ما توصلنا إليه في الشخصية الاعتبارية جمعنا والحمد لله ما يقنع به كثير من العلماء، ولقد بدأت بالفعل عرض هذه الفتوي علي كثير من العلماء وكثير جداً منهم اقتنع اقتناعاً تاما بأنه ينبغي علينا أن ندرس الحالة الراهنة بعد سنة ١٩٧٣ دراسة أخري غير التي سبقت من مجمع البحوث الإسلامية لسنة ١٩٦٥ لأن الواقع تغير، وسوف تصدر هذه الفتوي إنشاء الله قريباً.

* وماذا عن نقل الأعضاء؟

ـ هناك فتوي مفصلة أظن أنها كافية ووافية، لأنها تحقق المصالح للمرضي وللمآلات، ومصالح المآلات هي التي تتكلم عن أنه لانريد أن يتحول الإنسان إلي

قطع غيار تباع وتشتري، ولا نريد تسلط طبقة الأغنياء علي الفقراء، لا نريد ظهور مافيا للأعضاء وسرقتها والاتجار بالبشر وهذا مسلم به بين جميع العقلاء، ما الذي نفعله حتي نسد الباب علي هؤلاء؟ وكذلك حتي يخف المرضي ويذهب الألم.

* لكن فتوي مجمع البحوث الإسلامية مختلف عليها حتي الآن؟

- هذا الاختلاف خارج المجامع ومختلف أيضاً في نقطة أخري وهي تعريف الموت وهل الموت الإكلينيكي موت حقيقي أم لا؟

والخلاف بالأساس ليس بين علماء الشريعة وإنما بين الأطباء وهو خلاف عنيف، لأنه في مجمع الفقه في جدة وفي منظمة طبية أخري في الكويت توصلوا إلي أنه موت ثم فوجئنا بتوجهات عنيفة من أساتذة كبار في مصر، لهم وزنهم وثقلهم أنه ليس بموت، فصدرت الفتاوي هنا كبناء علي الطب وهنا صدرت أيضاً بناء علي موقف الطب وحدث تحيز نتيجة تحير واختلاف وجهات النظر بين الأطباء، فإذن هنا أستطيع أن أجزم أن فقهاء الشريعة كأنهم متفقون لأن المختلف هو الطبيب الذي يعطيه المعلومة، ولو أن الأطباء اتفقوا علي رأي واحد وكلمة واحدة لوجدت مباشرة الشرعيين في نفس اليوم وذات الساعة اتفقوا.

* هل تشعر فضيلتك أن جزءاً من أزمتك أن فضيلتك «مفتي عصري»؟

ـ أتمني أن أكون مفتياً عصرياً، والمفتي العصري مدح وليس ذماً.

* هل يمكن أن يدفع المفتي العصري ثمن ذلك؟

ـ الشيخ محمد عبده هاجمته الصحافة يومياً ولم يمكنوه من أداء رسالته ومنهجه وهو الذي نحتفي به الآن ونحتفل به في ذكراه المئوية.

* هل فعلاً رأيت الرسول «صلي الله عليه وسلم» في اليقظة كما ذُكرت في كتابك «الدين والحياة.. الفتاوي العصرية اليومية»؟

ـ نعم، نص الحديث كده «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» أخرجه مسلم، ورأيت الرسول «صلي الله عليه وسلم» فعلياً ومن أجل ذلك كتبت كتاباً عن «مدي حجية الرؤيا» لم يشر إليه أحد وقلت فيه إن الرؤيا البصرية مثل الرؤيا المنامية وليس فيها حجة مثلما تراه في المنام، ولقد رأيت الرسول «صلي الله عليه وسلم» في اليقظة لحظات فقلت في نفسي كم شعرة شائبة في لحيته؟ فاختفي مباشرة،

وهذا الحديث وارد في مسلم، وشخص سألني عنه فقلت له نعم وأنا حدث لي هذا، وقلت ذلك لأنني أري في عملي كده. وحينما سأل أحد الأشخاص الشيخ سيد سابق في أحد اللقاءات في مسجد عمر مكرم عن إمكانية رؤية الرسول «صلي الله عليه وسلم» في اليقظة وكان هذا أمامي، فقال أنا رأيته يقظة ببساطة، وما الغريب في أن يري المسلم الرسول «صلي الله عليه وسلم» في اليقظة، والمرسي أبوالعباس يقول «لو غاب عني «صلي الله عليه وسلم» لحظة ماعددت نفسي من المسلمين» إذن الخرافة هي إنكار الواقع.

* هل المفتي صنايعي؟

ـ نعم إحنا صنايعية وبلاش تدخلو في صنعتنا حشر كده لأننا صنايعية ولنا تجربة حياتية وابتلينا بالناس ومشاكلهم، وكتبت في العقلية العلمية والعقلية الخرافية، والعلمية هي التي تتفق مع النقل وهي التي يكون لها مصادر وطرق بحث وشروط باحث وأدوات ونتائج وجمل مفيدة.

* هل يحاسبك البعض علي حبك الجارف للرسول «صلي الله عليه وسلم»؟

ـ إنني أعشقه.

***

الحوار على موقع " المصري اليوم "

مؤتمر الصوفيـــــــــة

أرسل مشايخ الطرق الصوفية على مستوى العـالم، المشاركون في أول مـؤتمر عالمي للتصوف في مصر، برقيات للأمم المتحدة والمجتمع الدولي للإسراع بـالاعتراف بدولة فلسطين. مستنكرين المحـاولات الإسرائيليـة المتكـررة لهـدم المسجد الأقـصى وتهويد القدس الشريف، داعين الأمة العربيـة والإسـلامية للتوحـد والتوافـق وإزالـة العقبات من طريقها في ظل «الربيع العربي» الذي تشهده الشعوب واسـتئناف صـناعة الحضارة وإسعاد البشرية بوسطية وسماحة الإسلام.

وأوصى المؤتمر بتجديد الخطاب الصوفي المعاصر وتغيير مصطلحاته ليتحـول إلى منهج عملي محدد السمات ويلامس الحياة في سائر المتغـيرات، وتأسـيس أول اتحـاد «صوفي عالمي» يضم الطـرق والهيئـات والجماعـات والمؤسـسات والمـنظمات، بهـدف توحيد الـصف والكلمـة والنهـضة والرقـي روحيًـا بالمـسلمين حتـى يكونـوا أدوات للإصلاح في العالم. كما أوصى المؤتمر بتعديل القـانون رقـم 118 لـسنة 1976 الخـاص بالطرق الصوفية في مصر، ليتضمن قصر ولاية شيخ مشايخ الطرق الصوفية، لتـصبح لفترة واحدة أو ولايتين بحد أقصى، ووضع ضوابط شرعية وعلمية لمن يتولى منـصب رئيس أي طريقة صوفية، وضمان استقلال المشيخة العامة للطرق الصوفية عن الدولة.

وتبرأ المشاركون في المؤتمر من فتح باب التشيع في العالم العربي، مؤكدين عـلى أن الصوفية منتمية لأهل السنة وليس لها علاقة بالشيعة.

واختتمت في القاهرة أمس (الاثنين) فعاليات مؤتمر «الصوفية.. منهج أصيل للإصلاح» والذي استمر لمدة ثلاثة أيام برعاية الـدكتور أحمـد الطيـب شـيخ الأزهـر،

وبإشراف المشيخة العامة للطرق الصوفية ووزارة الأوقاف المصرية، وبمشاركة 300 عالم ومتصوف ينتمون لأكثر من 35 دولة عربية وإسلامية وأجنبية.

وشارك في أعمال المؤتمر عدد من مرشحي الرئاسة المحتملين في مصر، بينهم عمرو موسى وعبد المنعم أبو الفتوح، بالإضافة إلى ممثلين عن الأحزاب والقوى السياسية وشباب ثورة 25 يناير، وجماعة الإخوان المسلمين والكنيسة القبطية ممثلة عن البابا شنودة بابا الإسكندرية بطريرك الكرازة المرقسية.

وغاب الدكتور أحمد الطيب عن حضور المؤتمر، وأناب عنه الدكتور حسن الشافعي مستشار شيخ الأزهر، الأمين العام للمؤتمر. الذي أكد على أن التصوف ضرورة إنسانية وصحوة فاعلة تدعو إلى البناء والجهاد والفداء والتضحية في كل حين وفي خدمة الخلق أجمعين، مضيفا أن مهمة التصوف، العمارة وبناء الحضارة، والدفاع عن مقدسات الأمة، مشيرا إلى أن الصوفية كانت تقود الشعوب في حركات التحرير والجلاء.

ويأتي المؤتمر الأول للتصوف، في محاولة جادة من علماء التصوف الإسلامي في العالم لتوحيد وتفعيل دور أكثر من 15 مليون متصوف مصري وما يزيد عن 200 مليون متصوف في الدول العربية وحول العالم، للإسهام وبفاعلية في دعم المساعي والتوجهات الحالية في الدول الإسلامية الهادفة إلى تحقيق الإصلاح الشامل والتنمية الحقيقية في جمي القطاعات المجتمعية.

ومن جانبه، طالب الدكتور عبد الفضيل القوصي وزير الأوقاف المصري، الذي افتتح فعاليات المؤتمر، بتجديد الخطاب الصوفي المعاصر وتغيير مصطلحاته ومن أهمها مصطلح «المجاهدة»، ليتماشى مع روح العصر، وكذا تحويل السلوك الصوفي إلى سلوك عملي يسهم في النهوض بالأمة، مطالبا الصوفيين بتوحيد خطابهم إلى العالم الغربي والذي أصيب بالجفاء الروحي، ليواجه الحضارة المادية ويضع رؤية لنشر سماحة الإسلام في ربوع العالم.

وأكد القوصي على أهمية التوافق بين المادة والروح، حتى تتجسد الصوفية بمعناها الحقيقي، لتقوم بتقوية علاقة الإنسان بربه، وتسهم في إيجاد روح ناهضة بالحيوية، ورؤية فاعلة تنطلق من المفاهيم الأصيلة للإسلام، مشيرا إلى أن الطرق الصوفية تعمل بأصول الكتاب والسنة.

ومن جانبه، قال مفتي مصر الدكتور علي جمعة: «الصوفية تصلح ولا تفسد، وتوحد ولا تفرق، وتوجه الناس إلى الإخلاص لله تعالى في كل أعمالها، وتعمل على تحقيق العدل وتنشئة الأجيال على طاعة الله، وتجسد الحب في الله بين الناس وتنشر التقوى على النفوس لتتحلي بالعفاف والحياء والسعي إلى الخيرات»، مؤكدا على أن «التصوف هو طريق للحب والسلام».

وأكد محمد عصام الدين، رائد العشيرة المحمدية، عضو مشيخة الطرق الصوفية في مصر، على أن «الأفكار الإرهابية وأجواء الفساد لا تقوم في حالة الوازع الديني، وأن التصوف ليس مذهبا، والصوفية ليسوا فرقة، فهي عقيدة المسلم في مشارق الأرض ومغاربها».

وقال المشاركون في الفعاليات، إن المؤتمر يكتسب أهمية كبيرة في ظل ما تعاني منه الدول العربية والإسلامية من ضغوط خارجية متواصلة، لفرض نموذج معين للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تحت شعار الإصلاح، والهادفة إلى تمرير هذه النماذج التي لا تتفق مع طبيعة التراث الحضاري للأمة وتحقيق أهدافها القومية.

ومن جهته، أكد الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق، أن المؤتمر جاء في توقيت هام، لافتا إلى أن «عالمنا يموج في فتن وتحديات، ولا خلاص منها؛ إلا بالعودة إلى الله تعالى وتوثيق الصلة به»، قائلا: «الإصلاح يتجسد في العودة إلى الإسلام الصحيح».

وأوضح هاشم أن أي شريعة بلا حقيقة عاطلة، وأي حقيقة بلا شريعة باطلة، مضيفًا: «آن الأوان لأمتنا أن تتجه إلى الله تعالى، وتغليب قيم الإسلام وأخلاقه على إفادتها من التوحد والتعاون والألفة والود والمحبة، وترك الكراهية والحقد والبغضاء»، مشيرا إلى أن الدخلاء على الصوفية يشوهون تاريخ الصوفية وحاضرها ومستقبلها. وقال هاشم: «الطرق الصوفية لم تعرف يوما التطرف، ولم يخرج من عباءتها من يعادي الآخر، والمنهج الصوفي يدعو إلى الألفة والمحبة وتوثيق الصلة بالله».

ودعا الشيخ عبد الهادي القصبي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر، كل التيارات والقوى الوطنية والإسلامية إلى التوحد والتوافق في هذه اللحظات التاريخية في مصر والعالم، من أجل مصلحة البلاد، والتصدي لمحاولات التعدي على إرادات الشعوب في اليمن وسوريا وليبيا وغيرها، موضحًا أن إصلاح الفرد هو رسالة أهل التصوف.

وطالب محمود الشريف، نقيب الأشراف في مصر، القادة العرب أن يعملوا على توحيد الصفوف وتوافق الكلمة مصد قًا لقوله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعا وَلا تَفَرَّقُوا»، مناشدًا كل العلماء في كل مكان، تفعيل دور الأمة الريادي في العالَم نحو تربية المجتمعات على السير على هدي النبي صلى الله عليه وسلم ومكارم الأخلاق وفق المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

كان المؤتمر قد بحث خمسة محاور تناولت الحاجة إلى الإصلاح الشامل في المجتمعات العربية والإسلامية، وطرح التصوف كمنهج للإصلاح، والإشكاليات والعقبات التي تواجه الإصلاح، وتطبيق نماذج الإصلاح الإسلامية، وعرض إمكانيات الإصلاح عند الصوفية في بناء العقل والروح».

ودعا الدكتور عبد الرحمن البر، أستاذ الحديث بجامعة الأزهر عضو مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين، الصرفيين إلى الانتقال من الكلام النظري إلى

الواقع العملي والتنفيذي، وعدم اختزال العبادة في الذكر والانعزال في المساجد فحسب؛ بل يجب أن يكونوا مجاهدين في الحياة، يقدمون نموذج القدوة والتفرد؛ اقتداء بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وطالب البر كل التوجهات الوطنية والإسلامية في مصر والأمة العربية والإسلامية بالتوحد صفًا واحدًا على كلمة سواء، ومواجهة التكتلات التي تضعف الصف الوطني؛ حتى تعود إلى الخريطة العالمية رائدة وقائدة تسيطر على كثير من أجزائه بعد ضعفها.

ودعا الداعية الحبيب علي الجفري، المدير العام لمؤسسة طابا للدراسات الإسلامية بأبوظبي، إلى أن يتصدر التصوف في كل مكان، من هم أكثر أخلاقًا وانضباطًا، قائلا: «لا يجوز أن يكون قيادة الصوفية من هم جاهلون بالإسلام، ومن يفتقدون القيم والأخلاق»، وأرجع ذلك «لأن العالم يفتقد ظهور المربين العلماء العاملين بعلمهم والنافعين للناس».

وقال الجعفري: إن «إقامة هذا المؤتمر في مصر يحقق النهضة للأمة»، مؤكدا على ضرورة بناء المسلمين روحيًا؛ لكي يتمكنوا من الإبصار إلى مفاهيم القرآن والسنة بعمق، وحتى يستطيعوا مواجهة سطوة الباطل الزائفة؛ حيث إن الباطل يستقوي بقدر تقاعس أهل الحق عن مناصرة حقهم».

وطالب الجفري «الإسلاميين والصوفيين في العالم كافة بكثرة الذكر، وإحياء القرآن والسنة، وإنتاج جيل رائد في السياسة والاقتصاد والدعوة والتربية والتجارة والقانون؛ ليعيد للأمة نهضتها»، موضحًا أن الإسلام لا ينسحب على ساحة واحدة من الساحات، ولا يقتصر على السياسة وحدها، ولا على الذكر وحده؛ حيث إن الحكام الذين أراقوا دماء الإنسانية في سوريا واليمن وليبيا ومصر وتونس ما فعلوا ذلك؛ إلا بغياب التزكية عنهم.

وأضاف الجعفري أن ارتقاء الروح لـيس جانبًـا في الإسـلام، وهـذا الادعـاء خطأ كبير؛ حيث إن الروح أصل في الإسلام بخدمة الشرع والعقل والأمة، فمـن دون التزكية لا يمكن أن تنال الفلاح؛ مصداقًا لقوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَـابَ مَنْ دَسَّاهَا».

ونُوقش خلال المؤتمر أكثر من 150 بحثا من كبار علماء الدين والمفكرين مـن أتباع المنهج الصوفي المعتدل من مصر والعالم.

وأكد يونس باجوري، ممثل وفد علماء فرنسا، أن الأمة تواجـه أزمـة أخلاقيـة وأزمات كبيرة في كل المجـالات، فإمـا أن يبقـى التـصوف متغيبًـا ومنعـزلا، وإمـا أن يتدخل في ميدان الحياة اليومية؛ حيث إنه علم وعمل وذوق وفكر وذكر ويجب تفعيله بالمجتمعات، لأنه إذا لم يكن حاضرًا فستنحرف العقول والسلوكيات.

وقال الشيخ عبد الناصر الجابري، أحد علماء الشام، إننـا نعـيش وسـط عـالم يموج في الفساد والإفساد في ظل وحدة الغرب الذي حدد أهدافه وهي أمـن إسرائيـل وسرقة الثروات العربية عن طريق التدخل الخارجي في بعض بلـداننا العربيـة، لتبقـى إسرائيل هي الأقوى، مشيرا إلى أن الغرب نجح في نشر الفوضى الخلاقة، فإن لم يـنجح في إحداث الفرقة بين الشعوب العربية، قام بالتـدخل والتـدمير، كـما يحـدث في ليبيـا، مضيفا: «من ملاك القدس، حكم العالم، والأجدر بعودة القدس هـم أهـل التـصوف، الذين طلقوا الدنيا وباعوا أنفسهم لله».

وأوضـح الـشيخ يوسـف الرفـاعي، وزيـر الأوقـاف الكـويتي الأسـبق، أن الصوفية ليس لها كتاب إلا كتاب الله عز وجل، ولا هادي إلا الهـادي محمـد صـلى الله عليه وسلم، ولا فقه سوى المـذاهب الفقهيـة للأئمـة الأربعـة، ولا عقيـدة إلا عقيـدة السلف الصالح الذين يحملون هم الأمة ويشاركونها في آمالها وآلامها.

وأضاف الرفاعي: «التصوف به كثير من الشطحات ويجب تصحيحها فورا، حيث يجب أن ينفتح المنهج الصوفي، ويجلى عنه الجمود البشري على ضوء الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين».

وأوضح الرفاعي أن أعداء الأمة وخاصة الكيان الصهيوني، قلقون وخائفون بعد هذا التحول الذي صار في المنطقة، ويجب على الثورات العربية، والحكام أولا، أن تأخذ مواقع الهجوم بدلا من مواقع الدفاع؛ حتى تتمكن من تحرير المسجد الأقصى المبارك والمسجد الخليلي وفلسطين كلها، من دنس الغاصبين المخربين والاستيطان وحملات التهويد.

وعلى هامش أعمال المؤتمر، أكد شيخ الأزهر خلال لقائه وفدا من المؤتمر بمقر مكتبه بمشيخة الأزهر الشريف، على قيمة الصوفية، كونها منهجا سلوكيا لتربية النفس والرقي بها، وأنها أصعب من تربية العقول وتربية الأجسام، وأن العالم الإسلامي أحوج ما يكون إليها اليوم، أكثر من أي وقت مضى.

ودعا شيخ الأزهر إلى ضرورة الاهتمام بتحصيل العلم الشرعي وعلوم الفقه والأحكام، وإلى ضرورة الاستفادة من السلوك في الصوفية، طريقا لإصلاح المجتمع.

وانتقد شيخ الأزهر بعض الادعاءات المرفوضة من بعض التيارات ضد الصوفية، داعيا إلى تنقية الساحة الصوفية مما يشوبها مما لا يليق بها.

كما نبه الدكتور الطيب إلى رفضه، تقسيم المسلمين إلى أشراف وغير أشراف في ظل الواقع الذي يعيشه المجتمع المصري والعربي، وإلى ضرورة أن يكون شيخ الطريقة الصوفية، مستوفيا شروط المربي والمرشد، وأن يتزود بالعلم قبل الوصول إلى منصب الإرشاد، مؤكدا على أهمية تقويم وتنظيم وتوجيه وترشيد الطاقات الإيمانية لدى قطاعات عريضة من الجماهير، نحو البناء والإصلاح على المنهج الرباني الروحي

الأصيل؛ بدلا من الهدم والتفرق والاختلاف، وترشيد التصوف، ورد ما يشاع على الممارسات الصوفية إلى الكتاب والسنة دون إفراط أو تفريط.

وأشاد الدكتور الطيب بالتعاون المثمر بين علماء الأزهر وعلماء التصوف، في إحداث نهضة علمية سلوكية تحقق النهضة لمجتمعاتنا وكقوة فاعلة وتصحيح مسار مجتمعاتنا إلى الأفضل.

من جانبه، قال شيخ مشايخ الطرق الصوفية الشيخ عبد الهادي القصبي نيابة عن الوفود المشاركة في المؤتمر: «الأزهر الشريف يمثل القلعة المنيعة والمظلة التي تجمع مسلمي العالم تحت رايته»، مؤكدا على أن علماء التصوف حول العالم قادرون على الإسهام وبفاعلية في دعم المساعي والتوجهات نحو تحقيق الإصلاح الشامل والتنمية الحقيقية في جميع القطاعات المجتمعية.

***

مفتي مصر:

"الصوفية" هي الفهم الصحيح للإسلام!!

اعتبر الدكتور علي جمعة - مفتي مصر - أن "مَن أنكر التصوف هو مادي أراد قتل الإسلام"، زاعمًا أن "التصوف هو الفهم الصحيح للإسلام".

جاء ذلك خلال لقائه في برنامج "كلمة حق" الذي يذاع على التلفزيون المصري، وكانت الحلقة بعنوان "الصوفية والتصوف" وبحضور الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر السابق وعضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية.

وأضاف المفتي أن على الجميع أن يفهموا أن التصوف هو الدين رغم أنف جميع المنكرين، كما عدَّد المفتي فضائل التصوف من الزهد والورع وتحدث عن أشهر علماء التصوف.

وتغص الصوفية في هذه الأيام بكثير من الشركيات والبدعيات والضلالات والخرافات التي ليست من دين الإسلام في شيء، ويكفي أن يشاهد المسلم ما يفعله هؤلاء عند قبور وأضرحة من يصفونهم بالأولياء، ليعلم أنهم يأتون بعظائم من طواف وذبح ونذر واستغاثة بصاحب الضريح، إلى جانب ما يخالط ذلك من اختلاط فاحش في تلك التجمعات، واستغلال مشايخ الطرق لصناديق النذور في تلك الأضرحة للإثراء بغير وجه حق، علمًا بأن تقرير لـ"بي بي سي" تحدث مؤخرًا أن نصف تلك الأضرحة المزعومة في مصر "مزيف".

يذكر أن مفتي مصر علي جمعة - وهو صوفي ينتمي للطريقة الجعفرية - اعتاد على الإشادة بالتيار الصوفي الذي ينتمي إليه، كما دأب على مهاجمة التيار السلفي الذي يؤكد مراقبون أنه يحظى بحضور واسع وكبير لدى جموع الشعب المصري، وسبق في تصريح له إبان عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك أن اعتبر التيار السلفي "أقرب ما يكون إلى العلمانية منه إلى الإسلام"!!!

وفي مقال بعث به إلى صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية قبل عدة أشهر، شن الدكتور "علي جمعة" حملة شديدة على أصحاب التوجه السلفي في مصر، متهمًا إياهم بأنهم يشكلون خطرًا حقيقيًّا؛ لأنهم من يقفون وراء استهداف الكنائس والأضرحة في مصر - حسب زعمه -.

واتهم جمعة في مقاله أصحاب الاتجاه السلفي بأن تفكيرهم رجعي، كما وصف السلفيين بأنهم جماعة متحجرة منعزلة رافضة للحياة معادية للمجتمع وللعالم تسعى لشق الصف ونشر التشدد الديني، زاعمًا أن تصرفاتهم لا تمتُّ للإسلام وأن أفكارهم تزرع الشقاق في المجتمع وأخطر من ذلك أنهم يجعلون منهجهم هو المعيار الذي يجب أن يكون عليه المسلمون.

***

المصدر: موقع مفكرة الإسلام

علي جمعة الإنسان الذي لا يعرفه أحد

د/ على جمعة مفتي الديار المصرية من الفقهاء المصريين المعدودين، ويعرف الجميع قيمته الفقهية والعلمية، ولكنني اليوم سأتحدث عن د/ على جمعة الإنسان، وكيف ينظر إلي الحياة ويتعامل معها ومع الناس، وذلك من خلال تلاميذه من الفقهاء والعلماء والطلاب الذين تربوا على يديه ونهلوا من معينه وكذلك كل من تعامل معه، فالدكتور على جمعة لم يأخذ في حياته كلها ثمن أي كتاب من كتبه التي كانت تدرس في الأزهر، فقد كان يوزع كتبه مجاناً على طلابه.

ولم يكتف بذلك بل إنه كان يوزع الكتاب الذي كان يدرسه في الحوزة العلمية في الأزهر الشريف مجاناً على جميع الطلاب الحاضرين، فإذا كان يدرس مثلاً كتاب "لب الأصول" للشيخ/ زكريا الأنصاري وزعه على جميع طلابه في الحوزة مجاناً، وكان يدفع المصروفات الجامعية لجميع الطلاب الغير قادرين على دفعها في الكلية، سواء كان يدرس لهم أو لا يدرس لهم.

بل إنه كان ينفق من جيبه الخاص على دار الإفتاء ثلاث سنوات كاملة من عام 2004 وحتى عام 2007، وذلك حينما كانت دار الإفتاء المصرية تتبع وزارة العدل والتي كانت تضن بالإنفاق على دار الإفتاء وموظفيها وعلمائها وتهتم بالقضاة والمستشارين دون سواهم.

وقد حكي لي بعض علماء دار الإفتاء أن الدار كانت تحتاج من اللمبة إلي أجهزة الكمبيوتر الحديثة، فلا تجد من يشتريها، فكان الشيخ يشتري كل ما تحتاجه دار الإفتاء حتى ترسل وزارة العدل كل شهر ما تحتاج إليه.

ويذكر هذا العالم أن دار الإفتاء كانت تضاء أحيانا بنصف الإضـاءة المطلوبـة وعليك أن تنتظر لمدة شهر حتى ترسل وزارة العدل اللمبات المطلوبة في روتين سـمج وممل

وقد سعي د/ على جمعة لاستقلال دار الإفتاء حتـى أصـبح واقعـاً، وذلـك أعطى دفعة قويـة للـدار للانطـلاق للعالميـة في الفتـوى الإسـلامية، وخاصـة بعـد أن انتقلت إلي مبناها الجديد والذي يحوي كافة الإمكانيات الحديثة.

وكان د/ عي جمعة يساعد كل علماء الدار حينما كانت تتبع وزارة العدل، فقد كان مرتب أمين الفتوى الحاصل على الماجستير في الفقه لا يجاوز 700 جنيهاً، وعندما استقلت دار الإفتاء تضاعفت مرتباتهم بحيث تليق بفقيه متخصص ومتفرغ يعمل من الثامنة صباحاً وحتى العاشرة مساءً دون انقطاع.

لقد حكـي لي أحـد أمنـاء الفتـوى بالـدار حاصـل عـلى الـدكتوراة في الفقـه الإسلامي أن د/ علي جمعة ما ترك فقيهاً ولا موظفاً ولا عاملاً بالـدار عليـه ديـن إلا سدده، وما احتاج أحد في دار الإفتاء إلي عملية جراحية أو إلي علاج غالي الثمن لـه أو لأحد من أسرته إلا وتم ذلـك عـلى نفقتـه، حيـث لم يكـن هنـاك تـأمين صـحي عـلى الموظفين بالدار قبل استقلالها.

وكان د/ علي جمعـة يخـرج كـل عـام قرابـة 20 شخـصاً للحـج عـلى نفقتـه الخاصة، ولم يترك موظفاً أو عاملاً بالدار إلا وتحمل نفقـة حجـه حتـى لم يعـد في دار الإفتاء موظف واحد لم يحج بيت الله الحرام.

لقد حاول د/ على جمعة جذب الكفاءات الفقهية إلي دار الإفتاء، وكـان يهـتم بهم وبأسرهم بعيداً عن مرتبات الدولة الهزيلة مادياً ومعنويـاً حتـى لا تـذهب هـذه

الكفاءات النادرة إلي أماكن أخرى داخل مصر أو خارجها، والتي تعطي أمثالهم آلاف الجنيهات شهرياً.

ومن أوائل الذين اهتموا بالوقف الإسلامي كرافد مهم لإصلاح المجتمعات العربية والإسلامية د/ على جمعة، وكان يرى أن الوقف الإسلامي هو الذي حافظ على الأمة الإسلامية طوال العصور الماضية وحافظ على الصحة والتعليم وحمى الأيتام من التشرد، وفرغ العلماء لطلب العلم حتى لا يحتاجون للسلطان .

وكان يرى أن الوقف هو سر تقدم الأمة، وأن أكبر خطأ وقع فيه الرئيس السابق عبد الناصر هو إلغاء الوقف الإسلامي.

وكان د/ على جمعة يردد أن الوقف وصل إلي درجة من الرقي في المجتمعات الإسلامية مبلغاً يفوق المجتمعات الغربية، حتى أن البعض كان يوقف الكراسي في الأسواق والطرقات قديماً ليستريح عليها كبار السن والمرضى، وأن البعض كان يوقف الأواني المملوءة بالماء لسقيا الخيول والكلاب في الطرقات.

وكان هذا في منتهى الرقي الإنساني في المجتمعات المسلمة قديماً والتي كانت تفهم الإسلام حقاً ، فمن يصدق أن يوقف البعض أموالاً لسقيا الكلب والخيول في الطرقات في المجتمع المسلم قبل عشرات القرون قبل أن تعرف أوربا معنى الرفق بالحيوان.

وكان د/ علي جمعة يردد دائماً: كل عمل لابد له من وقف ينفق عليه، وهو ما يسمى الآن بالصيانة للمشروعات الكبرى التي قد تكون أهم من المشروع نفسه.

وكان يقول: الوقف هو الذي سينقل الصناعة والعلم لمن بعدنا.

وكان يتمنى أن يجمع 5 مليار جنيه مصري من أموال الوقف لينفق منها على البحث العلمي وعلى المراكز الصحية المتقدمة وعلى الفقراء واليتامى من خلال العمل المنتج المنظم، وليس من خلال الصدقة الوقتية.

لقد كان د/ علي جمعة مولعاً بالمثل الصيني "لا تعطني سمكة ولكن علمني صيد السمك "، ولعله طبقه على أرض الواقع كثيراً في مصر.

ولذا كان د/ علي جمعة يردد: أعطوني 5 مليار جنيه أغير لكم خريطة مصر ووجه الحياة فيها.

وهو صاحب ومؤسس مشروع "مصر الخير" للرعاية الاجتماعية ذلك المشروع العملاق الذي امتد إلي محافظات كثيرة في مصر، والذي انبثقت عنه شركة "أرض الخير".

وهذه الشركة تعمل على 3 مراحل:

1- إنشاء مزارع للإنتاج الحيواني ومصانع للعلف الحيواني

2- إعطاء الأسرة الريفية الفقيرة جاموسة ومعها العلف اللازم لتربيتها فترة من الزمن حتى تنتج هذه الجاموسة وتكفي هذه الأسرة.

3- العمل بنظرية الأكشاك: وذلك بتوزيع الأكشاك على الأسر الفقيرة بحيث تتبنى مصر الخير دورة كاملة للإنتاج في هذه المشروعات، فتجمع " مصر الخير " ثمن التكلفة وتترك الربح لصاحب الكشك دون أن يتحمل أية مصاريف.

لقد كان فكر د/ على جمعة أكبر من فكر فقيه ينكب على الرد على الفتاوى أو ينقب في بطون الكتب أو يستخرج الحلول للمسائل الفقهية المعاصرة فحسب، ولكنه

حاول أن يربط الدين بالحياة، والواجب الشرعي بالواقع العملي ربطاً لا يخل بأحدهما من أجل الآخر، لأن الدين جاء لإصلاح الدنيا وتعميرها وليس هجرانها أو تدميرها.

لقد كان فكره الإنساني أكبر من فكر الفقيه العادي، فقد أجرى برتوكول تعاون مع إيطاليا لإرسال بعثات مصرية تدرس هناك كل أنواع المهن الحديثة بتطوراتها الجديدة بحيث لا يتكلف الدارس شيئاً، وتستمر الدراسة هناك لمدة 5 سنوات.

وقد أخذ د/ علي المفتي هذه الفكرة من محمد علي باني مصر الحديثة، وهذا المشروع مستمر ومتواصل منذ عشر سنوات تقريباً.

ومن أجل هذا الفكر المتطور كان د/ علي جمعة أول من أيد وساند د/ زويل في مشروعه العلمي العملاق " جامعة زويل المستقلة للبحث العلمي "، وكان أول من وقف إلي جوار الجراح العالمي د/ مجدي يعقوب وساعده في تأسيس مركزه العالمي لجراحات القلب في أسوان، وهو أكبر مركز لعلاج العيوب الخلقية في قلوب الأطفال في الشرق الأوسط، حيث يستطيع د/ مجدي يعقوب ومساعدوه إصلاح أربعة عيوب خلقية في القلب في جراحة واحدة.

إن فكر د/ علي جمعة أكبر من عقول كثيرة تتصدر المشهد الإسلامي، وياليت هؤلاء يتركون الرجل يعمل في صمت وهدوء بل يكيلون له بين الحين والآخر الكثير والكثير من الاتهامات الباطلة لمجرد الاختلاف في الرأي أو الفكر، ورغم ذلك يثبت الرجل بين الحين والآخر أنه أكبر وأحلم وأرقى ممن يهاجمونه ويحاولون أن يهيلون التراب عليه وعلى فقهه وآثاره الإنسانية.

***

بقلم د/ ناجح إبراهيم... مقالة في جريدة الدستور

حوار حول التصوف والتشيع

مفتي مصر الدكتور علي جمعة

"السؤال عن علاقة بين التصوف والتشيع هو سؤال افتعالي، فالتصوف مجاله مرتبة الإحسان، والشيعة فكرة أقرب إلى السياسة منها إلى العقيدة".

هذه رؤية مفتي مصر فضيلة الشيخ الدكتور علي جمعة في حواره مع "إسلام أون لاين.نت" حول العلاقة بين التصوف والتشيع واعتبار الأول مدخلا للثاني.

فضيلة المفتي تعجب من محاولات الادعاء بأن ثمة علاقة بين الاثنين لـ"مجرد وجود تشابه خارجي"، حسب تعبيره، مؤكدا: أن "هذه مجالات ودوائر وملفات مختلفة، وأنها نتاج الفكر الإسلامي عبر القرون".

وفند المفتي كل أوجه التشابه التي يستند إليها القائلون باعتبار التصوف مدخلا للتشيع، ومنها العصمة للولي عند المتصوفة وللإمام عند الشيعة؛ مفرقا بين العصمة التي تقتضي حجية التشريع، والعصمة التي تقتضي الحفظ عند الصوفية.

الحوار في مجمله يُمثل نقلة في معالجة ملف العلاقة بين التصوف والتشيع من خلال شخصية تجمع بين الفقه والمسحة الصوفية والمنصب الرسمي.

* بداية هل ترى نقاط التقاء يمكن التعويل عليها في الجمع بين السنة والشيعة؟

- الشيعة فرقة من فرق المسلمين الشائع أن مقابلها أهل السنة، فالشيعة تختلف عن أهل السنة في المصادر، وإن كان الكتاب واحدًا عند الطائفتين، إلا أن تلقي السنة مختلف، فالسنة تروي عن كل الصحابة الرواة؛ وكل الصحابة الرواة كما يقول ابن حزم "ألف وثمانمائة تقريبا"، أما الشيعة فهم يروون عن عدد معين من الصحابة لا يزيدون عنهم، ولا يروون عن الباقي.

وبالرغم من ذلك، هناك حقيقة تقول إن نتاج السنة الذي عند الشيعة يوافق أكثر من 80٪ من مرويات السنة؛ وهذا هو ما اكتشفه بعد ذلك يوسف الطفيش في أواخر القرن التاسع عشر في كتابه (جامع لشمل) الذي أورد فيه الأحاديث المتفق عليها بين الشيعة وأهل السنة.. إلخ.

وكذلك محمد الحسيني الجلالي في شيكاغو، والذي ألف كتاب (جامع الأحاديث) الذي جمع فيه الأحاديث المتفق عليها بين أهل السنة وأهل الشيعة؛ وإضافة إلى ذلك هناك كتب إيرانية تصب في التقريب بين المذاهب يبلغ عددها حوالي ألف واثنين وعشرين مجلدا في المرويات المشتركة بين أهل السنة وأهل الشيعة.

وعلى كل حال، فقد اعترف الأزهر بالفقه الشيعي الجعفري منذ عام 1949م، وبدأ تدريسه، والفضل يرجع في ذلك بعد الله إلى مجموعة من علماء الأزهر ومشايخه، وعلى رأسهم شيخ الأزهر حينذاك الشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد المدني عميد كلية الشريعة، ود. عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى، وعبد العزيز عيسى وزير شئون الأزهر، وأحمد البهجوري مدير جامعة الأزهر، وهكذا.

غير أن الفتوى التي أصدرها الشيخ شلتوت -رحمه الله- بجواز التعبد بالمذهب الجعفري بين أهل السنة تبين بوضوح أن السنة متقدمون عن الشيعة خطوات في مسيرة التقريب، وكذلك الشيخ محمد فرح السنهوري الذي أخذ المذاهب الثمانية في موسوعة الفقه الإسلامي التي تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والتي

أخذت المذاهب الثمانية، الأربعة السنية المعروفة، إضافة إلى الظاهرية، والجعفرية، والزيدية، والإباضية.

سؤال افتعالي!

* التصوف كحركة فكرية عملية، البعض يتحدث عن أنه مدخل أو بداية للتشيع بحكم أن الاثنين يجمعهما حب آل البيت؟

- التصوف هو مرتبة من مراتب الإحسان، وهو علم من علوم الدين قائم بذاته وله كتبه، فتجد مثلا الرسالة القشيرية، أو قوت القلوب، أو إحياء علوم الدين، أو غير ذلك الكثير من كتب الصوفية.

وبالنسبة لحب آل البيت فكل المسلمين يحبون آل البيت، وآل البيت تولوا الحكم في الأردن والمغرب، وتولوا الحكم عبر التاريخ وكانوا من أهل السنة، إذن فالجهر بحب آل البيت لا شيء فيه.

أما فكرة الشيعة فهي أقرب ما تكون إلى السياسة لا العقيدة، والقضية ليست في حب آل البيت من عدمه، فمَن من المسلمين لا يحب أهل البيت سواء كانوا سنة أم شيعة؟!

الغريب في المسألة أن الشيعة وموضوعها التشيع لآل البيت والتصوف وموضوعه مرتبة الإحسان هما أمران مختلفان تمامًا لا يمكن الجمع بينهما، فالشيعة لا يوجد فيها طرق صوفية بالمرة.

* لكن هناك طريقة اسمها البكتاشية وهي شيعية؟

- البكتاشية لا علاقة لها بالشيعة؛ لأنها تركية، والأتراك لا علاقة لهم بالشيعة لوجود حروب بينهم وبين الدولة الصفوية، فالبكتاشية تركية، والمولوية

تركية، والأقبورية هندية نسبة إلى الأوشتية الهندية، وهكذا، فلا علاقة إطلاقا لهذه الطريقة على ما فيها من انتقادات بالشيعة.

فالسؤال نفسه سؤال افتعالي.. هل هناك علاقة بين التصوف والتشيع؟!! التصوف مجال موضوعه مرتبة الإحسان، فإذا كان الشيعة أو علماؤهم يأخذون من هذا المعين شيئا يرضونه في سلوكهم وفي علاقتهم بالله فهذا موجود في كل المذاهب الأخرى كذلك.

أهل السنة منهم من تصوف كالمتأخرين من العلماء كلهم أهل تصوف، الشيخ البهجوري مثلا كان نقشبنديا.. لم يكن هناك شيخ من شيوخ الإسلام في السنوات الثلاثمائة الماضية إلا وكان صوفيا.. لكن كون أن هناك صلة ما بين أمرين مفترقين لمجرد تشابه جزئي فهذا أمر غير منطقي.

الشيعة مثلا يأخذون بالعقل في بعض الأمور، وهو ما ذهب إليه المعتزلة، فهل يجوز أن نقول إن الشيعة معتزلة؟! على البداهة البعض يمكن أن يقول هذا، لكني أرى أن هذه مجالات ودوائر وملفات مختلفة، وأنها نتاج الفكر الإسلامي عبر القرون.

والذي بدأ تحسس الصلة بين التصوف والتشيع هو مصطفى كامل الشيبي في كتابه المطبوع في دار المعارف (رسالة الماجستير) بعنوان "الصلة بين التصوف والتشيع"، وذهب إلى أن هذه الموافقات الظاهرية صلة بين الأمرين، ونسي أن التمحيص يثبت أن هذا شيء وهذا شيء آخر.

وهذا يذكرني بمن حاول أن يوجد موافقات خارجية بين الإسلام والشيوعية.. مثلما فعل عبد الرحمن الشرقاوي "أبو ذر إمام الاشتراكيين"، ومثله من يرى أن فريضة الزكاة تشبه الضريبة، والحقيقة أن الزكاة شيء والضريبة شيء آخر،

وكذا من يقول بأن هناك تشابها بين الديمقراطية والشورى، مع أن الديمقراطية شيء والشورى شيء آخر، وهكذا، وهذه التشابهات لا تدل على الاتحاد.

* حتى لو قيل إن نظرية العصمة للولي عند الصوفية تشبه نظرية العصمة للإمام عند الشيعة؟

- لم يقل أحد من الصوفية إن الولي معصوم، وعبد القادر الجيلاني عندما سألوه أيزني الولي؟ قال: وإن كان أمر الله قدرًا مقدورًا.. وعندما زنا أحد تلاميذ المرسي أبو العباس وضُبِطَ، فجرى وراءه المريدون حتى يقيموا عليه الحد فركب البحر على منديل، وصار على سبيل الكرامة.. فقالوا له: ما هذا؟ هذا زانٍ فكيف تحدث له تلك الكرامة؟ فقال: إن الكريم إذا وهب ما سلب، وعندما نقول هذا يقوم الإخوة "المتمسلفون"، ويقولون: إذن الصوفية تجيز الزنا، وهكذا... إلخ.

وهذا خلط للأوراق قبيح، والقضية هي أنه لم يقل واحد من الصوفية بعصمة وليه إطلاقا، بل إنهم يتكلمون عما يسمونه بالحفظ، والحفظ قد يكون للولي ولغير الولي، فكثير من المسلمين لم يرتكب كبيرة قط مثلا، فالحمد لله هذا الذي لم يرتكب كبيرة قط هذا محفوظ لكنه ليس معصوما.

أما العصمة عند الشيعة فتعني أمرين: الأول: هو الحفظ، وهذا نقوله لكثير جدا من عموم المسلمين، والأمر الثاني: هو حجية التشريع.

فالشيعة يعتبرون فقهاءهم معصومين عصمة تشريعية، حيث إنه مشرع، فكلامه مصدر من مصادر التشريع، ويثبتون ذلك للأئمة الاثني عشر، وهذا لا يقول به أهل السنة، ولكنهم يثبتونه للأئمة الاثني عشر من أهل البيت الكرام الحُفّظ، وكذلك للصحابة بوصفه عام لكل أفراد الأمة من الممكن أن يجوز في حق الجميع.. ولكن العصمة هناك بمعنى آخر كما بينا.

ولكن السؤال: من أين أتوا بأن الصوفية تقول بالعصمة؟ من كتبهم أم من كتب أعدائهم الذين يفترون عليهم؟ أنا قرأت كتب الصوفية شرقا وغربا سلفا وخلفا فلم أجد بها ذلك.

لا تسييس!

* على ذكر من وصفتهم بـ"المتمسلفين" ترى لماذا ينظر هؤلاء إلى الشيعة والمتصوفين على أنهم درجة واحدة؟ أو بمعنى أدق في طريق واحد طريق البدع والضلالات؟

- لا أعرف.. عليك أن تسألهم؛ لأن هذه حالة عقلية ثقافية تجعل الإنسان تصدر منه أحكام وقرارات ورؤى للعالم مختلفة.. فهذا يحتاج إلى دراسة وبحث صحيح للعقلية السلفية.. لماذا تفعل هذا؟ هل لأنها تخشى أن يكون هذا بدعة، وأنه يخاف ويخشى هذا الجانب، وبالتالي يضع الجميع في سلة واحدة؟ قد يكون هذا.. لا أعلم.

* الطريقة العزمية أو آل البيت كانوا بصدد عقد مؤتمر منذ فترة في القاهرة للرد على صحة ما يقول الشيخ القرضاوي، ثم تم إلغاء المؤتمر أو تأجيله، فهم يقولون إن الشيخ القرضاوي قال: "إن التصوف هو المدخل للتشيع وتحديدا في مصر".. هل التصوف في مصر تحديدا الآن مسيس؟

- لا.. التصوف وهو مرتبة الإحسان والعلم (بغض النظر عن جانب التنظير) يختلف عن الطرق الصوفية، والطرق الصوفية مؤسسة مصرية تسجل فيها الطرق المعتمدة ولها مصادرها، وتصدر مجلة وليس لها دور سياسي، فلا تستشار في شيء، وليست عضوا في المجالس، مثل مجلس الشورى مجلس الشعب، وهكذا.

* أنا لم أقصد هذا التسييس، أنا قصدت أننا مثلا قد سمعنا عن بعض رموز من المتصوفين لهم علاقات بإيران، فهل يمكن أن يفسر هذا على أن التصوف في مصر وفي البلاد السنية عمق للشيعة؟

- لا أعرف.. لأول مرة أسمع أن رموز الصوفية لهم علاقة بإيران.. ولا سمعت من قبل أنهم عند أحد في إيران، أو أن أحدا من إيران عندهم، و"كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع"، أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح.

ونريد أن نعرف ما الحكاية؟ هل سنظل نتحدث في شائعات، وعجائب، وغرائب، وتداعيات فكرية دون أن يكون لها واقع.. أنا أريد أن أفهم وأعرف، أنت رجل تعيش في مصر مثلا، فهل هناك في بلدك أو منطقتك من تشيع حتى تتحدث عن أن التصوف عمق أو بوابة للتشيع؟!

لابد أن نتعقل قبل أن نصدر الأحكام.. فأنا لا أعرف شخصا في مصر إلا واحدا يدعى أحمد راسم النفيس، وهو لم يكن صوفيا، وإنما كان من الإخوان المسلمين.

* والشيخ حسن شحاتة؟

- الشيخ حسن شحاتة ليس شيعيا، وإنما هو رجل انفلت فقط، ولكن ليس شيعيا، فقد كفّر ابن تيمية، وابن القيم، ويكفر الصوفية أيضا، ويكفر الشيعة.

إذن من غير أحمد راسم النفيس فقط.. حتى صالح الورداني الذي كان قبل ذلك بعشرين سنة أعلن رجوعه عن مذهب الشيعة، وصالح الورداني كان صحفيا ولم يكن صوفيا.

والطريقة العزمية لها علاقات مع كل الناس، لها علاقات مع السودان وعلاقات مع ليبيا وعلاقات مع الشام وهكذا.. ولو أن هذه الطريقة مثلا لها علاقات مع السعودية فستصبح وهابية، أو مع إيران فتصبح شيعية؟

والحقيقة أني لا أرى تشيعا في مصر، لكن من الممكن أن نقول إنه عندما نجحت ثورة الخوميني استبشر الناس أن ثمة شيئا ينجح، ثم بعد ذلك حينما اتضحت الأحوال وحدثت الحرب العراقية الإيرانية، وحدثت المواقف المختلفة هنا وهناك انتهت هذه الثورة، وانتهى الأمر.

بين الحرية والتبشير

* على ذكر موضوع المد الشيعي الذي يتحدث عنه البعض.. مبدأ الحريات الدينية في الإسلام.. هل ترى إشكالية بين هذا المبدأ وبين الحجر على حرية الآخر - المذهبي أو الديني عموما - في الدعوة لما يعتقد داخل بلاد المسلمين؟

- الحرية شيء، والدعوة والتبشير شيء آخر.. فالحرية شخصية، والدعوة تتعلق بالنظام العام والاستقرار والأمن المجتمعي.

فبعض البلاد ثقافتها تطيق هذا. ولا ترى فيه بأسا ولا غضاضة ولا تلتفت إليه ولا يؤثر عليها، وبعض البلدان تركيبها الديموغرافي يأبى هذا، ويجعل التبشير نوعا من أنواع القدح في النظام العام، وهنا يُمنَعُ لا من أجل عدم الحرية الدينية، بل من أجل الحفاظ على الأمن الاجتماعي.

وموضوع الحرية الدينية يلعبون به ويُلَبِّسون به.. نحن نملك حرية في الدين وحرية في الفكر، ولكن أيضا عندنا عمل على استقرار المجتمع، والمحافظة على النظام العام، والمحافظة على الأمن المجتمعي، ففعلك هذا من ناحية الحرية الدينية مسموح به، ومن ناحية القدح في الاستقرار الاجتماعي غير مسموح به.

إذن نحن ضد عمليات التبشير لا من أجل أنها اعتقاد، فكل شخص من حقه أن يعتقد ما يشاء أن يعتقد "فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ"، "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"، "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"، ولكن من قبيل الزعزعة.

يا أخي.. اليهود عندما خانوا المسلمين في المدينة خرجوا عن مقتضى المواطنة فعاقبهم النبي ، ليس لأنهم يهود، ولا لأنهم تعاونوا سلميا مع المشركين، بل لأنهم تعاونوا وقت الحرب ضد الوطن، فهناك مجتمع له مكونات ينبغي أن نحافظ عليها، ومن ضمن هذه المكونات النظام العام والأمن المجتمعي والاستقرار الاجتماعي، وكل هذه الأشياء في مصر مثلا تمنع التبشير.

* لقد قلتَ إن السنة كانوا أسبق بكثير من الشيعة، ومع ذلك ما زال التباين بين السنة والشيعة وما زالت الملابسات؟

– أنا قلت إن السنة تقدموا على الشيعة في عمليات التقريب، وصدر شيء من شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد بالمذهب الجعفري، وصدر من الشيخ محمد فرج السنهوري اعتماده، ولم يحدث مثل هذا عن مرجعية الشيعة، فلم يعتمدوا المذاهب السنية ولا التعبد بها، إذن فنحن سبقناهم خطوة فقط.

أما عن سؤالك لماذا مازال التباين موجودا؟ فأنا أقول: لأن هذه الاتفاقات والخطوات المباركة في التقريب كانت بين النخبة، ولم تنزل إلى عقول الناس.

* كيف يمكنَ تنزيلها؟

– بآليات كثيرة منها المشاركة في الأعمال مثلا.. هناك بلاد طائفية وبلاد غير طائفية، فالبلاد الطائفية (لبنان والعراق والكويت) فيها سنة وشيعة.. فهيا بنا نعمل سويا.. نعمل مشروعا لبيع السجاد فيه سني وشيعي، فتزول هذه الأمور.

أنا أقصد أن المشاركة الحياتية تتم بعدم المفاصلة (بين النخبة وبين العامة) لا بين العامة والعامة، فكيف ننزل بمقررات النخبة إلى العامة؟ بآليات منها المشاركة، مثل شيء موجود في الكويت، وهو مبرة الأهل والأصحاب، يبين أن كل المسلمين يحبون آل البيت.

بمثل هذه المجالات والمشاركات يحدث التواؤم المجتمعي، فهل رأيت مثلا محلا لبيع القماش يملكه شيعي وسني؟! إذا حدث ذلك فستجد الموضوع ارتبط بالمصالح والحياة، وإذا ارتبط بالمصالح والحياة وجدنا أن الأمور لم يبق بها سلاح ودم وقتال وانفصال، وهكذا.

* إذن فأنت ترى أن الدعوة إلى التقريب إذا ظلت على مستوى النخبة فلن تنجح؟

- جميل أن تظل في النخبة، لكن ليس بجميل أن تنحبس في الأدراج النخبوية

المصدر : حوار مع علي جمعة على موقع :إسلام أون لاين.

***

هل يُمكن رؤية النبي في اليقظة ؟

رؤية نقدية للدكتور / ابن الشريف

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وأمّا بعد:

حب النبي صلى الله عليه وسلم واجبٌ على كل مسلم، والحب يكون بالإتباع لا بالإبتداع، ولقد قال بعض المبتدعة من غلاة الصوفية في زمننا هذا وأزمنة خلت أنهم يتصلون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظةً في موالدهم وفي أماكن أخرى ! ومما وقع في يدي بهذا الشأن تسجيل صوتي لمفتي جمهورية مصر العربية فضيلة الشيخ عليّ جمعة غفر الله له ولنا وسامحه الله على ما قال، يقول فيه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة !!! ويُشنِّع على من لم يقتنع برأيه! وأخذ يغمز ويهمز بنبرة استهزاء بالذين قالوا بالدليل باستحالة وقوع هذا، غفر الله له، وأحببت تبيان الحق في المسألة لإن الشيخ لم يعرض وجهة النظر المخالفة.

يقول الشيخ عليّ جمعة سامحه الله: (كنت منهمكاً في قراءة كتب السيرة .. قرأت قرابة الأربعين كتاب .. ثم تجلى لي النبي فرأيته يقظة) واستدل بهذا الحديث (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة) وللأسف الشديد فقد قام المفتي عفا الله عنه ببتر شهادة الراوي في هذا الحديث، ولكن قبل أن أعلّق على هذا الحديث أريد أن أسأل المفتي وكل من يؤمن بما قاله المفتي من إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة بعض الأسئلة المشروعة:

لماذا لم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم يقظة في مواقف كانت محددةً لمصير الأمة ؟ لماذا لم يظهر يقظة للمهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة وقت الاختلاف على الخلافة ؟ لماذا لم يظهر لأبي بكر رضي الله عنه في شأن نزاعه مع الزهراء رضي الله عنها في قضية فَدَك؟ لماذا لم يظهر في صفين وفي حروراء ليفضَّ جمهور الخوارج عن عليٍّ رضي الله عنه ؟ لماذا لم يظهر يقظة لمعاوية فينهاه عن قتال عليّ وأهل العراق ؟

أعتقد أن هذه الأسئلة "منطقية" جداً ونريد إجابات مقنعة من المفتي وأنصار هذا الرأي، فهذه المواقف أحرى وأوجب لظهور الرسول صلى الله عليه وسلم يقظةً، وهي أعظم من الموالد والمناسبات العامة وحالات الاختلاء بالنفس.

وقد قال الحافظ السخاوي في رؤية النبي صلى الله عليه وآله في اليقظة بعد موته:« لم يصل إلينا ذلك ـ أي ادعاء وقوعه ـ عن أحد من الصحابة ولا عمن بعدهم وقد اشتد حزن فاطمة عليه صلى الله عليه وسلم حتى ماتت كمدًا بعده بستة أشهر على الصحيح وبيتُها مجاور لضريحه الشريف ولم تنقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرتها عنه» نقل ذلك القسطلاني في(المواهب اللدنية) (5/ 295) عن السخاوي.

وأيضاً ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني «أن ابن أبى جمرة نقل عن جماعة من المتصوفة أنهم رأوا النبي في المنام ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأرشدهم إلى طريق تفريجها نجاء الأمر كذلك » ، ثم تعقب الحافظ ذلك بقوله:« وهذا مشكل جدًا ولو حُمِل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة ويعكر عليه أن جمعًا جمًا رأوه في المنام ، ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة وخبر الصادق لا يتخلف » (فتح الباري) (12/ 385).

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز/ في(حكم الاحتفال بالمولد النبوي) : «بعضهم يظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضر المولد ؛ ولهذا يقومون له مُحَيِّين ومرحّبين ، وهذا من أعظم الباطل وأقبح الجهل ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة ، ولا يتصل بأحد من الناس ، ولا يحضر اجتماعاتهم ، بل هو مقيم في قبره إلى يوم القيامة ، وروحه في أعلى عليين عند ربه في دار الكرامة، كما

قال الله تعالى في سورة المؤمنون:﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:15– 16) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلَّم :«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر.وأول شافع وأول مشفع » عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف وما جاء في معناهما من الآيات والأحاديث ، كلها تدل على أن النبي ص وغيره من الأموات إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ». اهـ (والحديث رواه مسلم).

أما حديث (من رآني في المنام فسوف يراني) فهو "مبتور"، والراوي نفسه لم يذكر (فسوف يراني) وسكت، إنما قال في روايته عن حديث النبي: (من رآني في المنام فسوف يراني أو لكأنما رآني في اليقظة) وهذه التكملة تدل على وقوع الشك في رواية الراوي، لإن رواية البخاري ليس فيها هذا اللفظ (فسوف يراني) إنما لفظ البخاري هو (فقد رآني) فقط، من غير زيادة ولا نقصان.

وقال الشيخ شحاتة صقر: والرواية أخرجها مسلم (حديث رقم 2266) ، وأبو داود (حديث رقم 5023) ، و أحمد (5/ 306) الذي فيه اللفظ المذكور بلفظ «فسيراني في اليقظة. أو لكأنما رآني في اليقظة » وهذا الشك من الراوي يدل على أن المحفوظ إنما هو لفظ «فكأنما رآني » أو «فقد رآني»؛ لأن كلًا منهما ورد في روايات كثيرة بالجزم وليس فيها شيء شك فيه الراوي.

فيتضح أن رواية الحديث الذي استدل به المفتي عفا الله عنه مبنية على الظن لقول الراوي (أو لكأنما رآني) وبالتالي نحن نأخذ المُحكَم ولا نأخذ المتشابه، والرواية المحكمة في الحديث هي (فقد رآني) أي أن رؤية النبي في المنام هي رؤية حق لإن الشيطان لا يتلبس بالنبي صلى الله عُليه وسلم، وبالتالي فرؤيته في اليقظة مستحيلة من كل وجه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

***

ابن الشريف

مدير موقع لماذا الاسلام

www.whyislamsa.com

الصوفية والإصلاح السياسي

في عام 1994م أنشاء الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون مركز (نيسكون) لتحليل التحديات السياسية التي تواجهها الولايات المتحدة الأمريكية في الخارج، وكان من أهم أولويات هذا المركز القيام بإعداد بحوث خاصة بالعالم الإسلامي، وكان أبرزها كيفية التعرف على الدور الذي يمكن أن يؤديه التصوف في خدمة السياسة الخارجية الأمريكية، وعقد المركز في مارس عام 2004م ندوة صدر بعدها تقرير بعنوان (فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية)، وكان من المشاركين في تلك الندوة رشيد قباني أحد المنتمين للطريقة النقشبندية.

وفي مصر الذي يعلم الجميع دور الأزهر في تثبيت دعائم الحكم فيها، اختار الرئيس السابق أنور السادات لنفسه لقب "الرئيس المؤمن" و كان حريصا على الظهور بمظهر الإنسان المتدين الذي يحافظ على الصلاة ويجمع حوله عدد من علماء الأزهر و يمسك دائما مسبحة في يده، ويشارك في احتفالات المولد النبوي، يقول في ذلك الكاتب على بكساوي أصبحت كل الأنظمة الحاكمة تضع عينها على القيادات الشعبية الإسلامية لتوجيه الناس من خلالها، وفي عهد محمد على باشا صدر قرار يقضي بتعين مشرف على جميع الطرق الصوفية والزوايا والمساجد التي بها أضرحة يكون له الحق في وضع مناهج التعليم التي تعطى فيها، وذلك كله في محاولة لتقويض سلطة شيخ الأزهر وعلمائه، وقد تطورت نظمه وتشريعاته وجاء الاستعمار البريطاني ليبدأ اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في تقاريره السنوية بوصف الصوفيين بالمسلمين (العقلاء) وأنشأ لهم المجلس الأعلى للطرق الصوفية في مصر وأصبحت الطرق الصوفية هي الممثلين للمسلمين في الدولة.

وفي عهد جمال عبد الناصر شن الزعيم القومي العربي حملة ضُد جماعة الإخوان المسلمين وقتل فيها الكثيرين ووضع عشرات الآلاف في السجون، ووقفت مشيخة الطرق الصوفية مع عبد الناصر في صراعه ضد الإخوان المسلمين، وفي ديسمبر 1967م سار أكبر موكب صوفي رسمي في مصر تأييدا لعبد الناصر في أعقاب هزيمة 5 يونيو 1967م .

وفي عهد الرئيس المخلوع محمد حسنى مبارك استفادة الصوفية في مصر كثيرا فقد صدر قانون لتنظيم انطرق الصوفية في 1976م ينص على اختصاص المجلس الأعلى للطرق الصوفية بإصدار تصاريح إقامة الموالد ومجالس الذكر وسير المواكب والاحتفالات في المواسم والأعياد الدينية، وتحرص الدولة على حضور مثل هذه الاحتفالات والترويج لها في وسائل الإعلام المحلية.

وفي أغسطس 2010 م قالت صحيفة المصريون :" إن 16 من مشايخ الصوفية عقدوا اجتماعا مع سكرتير السفارة الأمريكية بالقاهرة ، واتفقوا و على رأسهم الشيخ علاء أبو العزائم، خلال الاجتماع الذي عقد بمقر الطريقة العزمية بمنطقة السيدة زينب- بحضور ممثل لجهاز مباحث أمن الدولة- مع ممثل السفارة الأمريكية على أن تستضيف الإدارة الأمريكية مشايخ الصوفية على نفقتها الخاصة، لتنظيم العديد من الفعاليات والأنشطة، والقيام بزيارات إلى الولايات المتحدة لنشر الصوفية بين المسلمين الأمريكيين.

وقال الشيخ محمد عبد المجيد الشرنوبي إن ممثل الإدارة الأمريكية طالب باستمرار اللقاءات والتنسيق بين الجانبين، معتبرًا أن نموذج الإسلام الصوفي يمثل الإسلام المقبول والمرحب به في الولايات المتحدة لكونه إسلاما وسطيا ومعتدلا".

وقد أوصت لجنة الكونغرس الخاصة بالحريات الدينية بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية تأكيدا لما توصلت إليه مؤسسة راند البحثية الأمريكية RAND Corporationأحد أهم المؤسسات الفكرية الأمريكية.

ويسعى الغرب والإدارة الأمريكية من خلال ذلك إلى مصالحة التصوف الإسلامي ودعمه من أجل عدة أهداف أولها يبدأ توسعي الشرق الموجود بين التيارات الإسلامية في العالم، و ثانيا إحلال الصوفية كبديل عن الإسلام السياسي وإقصاء الدين عن الحياة العامة نهائية وتهميشه.

ويقول تقرير مؤسسة راندل الذي صدر عام 2007 م إن احتواء المد الإسلامي لابد أن يكون بواسطة إدارة صراع فكري ضد التيار الإسلامي يقوم به فريق من داخل المجتمع المسلم يتمثل في العلمانيين والحداثيين والتيار التقليدي المعتدل الذي يصلي في الأضرحة ويميل إلى التصوف.

وفي شهر نوفمبر عام 2007 قالت صحيفة اللواء الأردنية إن السفير الأمريكي ريتشارد دونى حرص على حضور الاحتفالية الكبرى لمولد (السيد البدوى) بمدينة طنطا للعام الثالث على التوالي وسط مشايخ الطرق الصوفية يكشف بجلاء حجم الاهتمام الكبير الذي توليه أمريكا في دعم التيار الصوفي في مصر والمنطقة العربية من منطلق أن الإسلام الصوفي هو الإسلام المعتدل الذي يتماشى مع مشروعها في المنطقة ولخلق كتلة سياسية من الصوفيين تكون بديلاً لكتلة الإخوان تحت قبة البرلمان المصري.

مؤتمر (التصوف منهج أصيل للإصلاح)

قبل أسبوع كان يعقد في العاصمة المصرية القاهرة وفي قاعة المؤتمرات الكبرى بالأزهر مؤتمر تحت عنوان (التصوف منهج أصيل للإصلاح) بحضور رموز الحركات الصوفية في العالم العربي والإسلامي، و استمر المؤتمر من 26 شوال وحتى 28 شوال، وفي ذلك يطرح تساءل مفاده أن الخطاب الإصلاحي الذي يطرح من قبل مشايخ التصوف في العالم العربي في وقت تعيش فيه الأمة حالة ثورة تضعها على طريقها الصحيح وتهمش الدور الغربي في التأثير عليها وتجعل (إسرائيل) تفكر في

مستقبلها الغامض بسبب التحولات الحالية، وكذلك رعاية الأزهر لهٰذا المؤتمر واحتضانه، لماذا يعقد الآن وفي مصر بالتحديد؟

مصر التي هي كنانة الله في أرضه، والتي تتمركز في مقدمة الأمة تعيش مرحلة صراع سياسي يكاد يكون مفصلي ينقلها من دور غيب فيه شعبها وصُدر قرارها من قبل الإدارة الأمريكية و قيادة سياسية لم تنظر سوى لمصالح الغرب، يأتي هذا المؤتمر بتنظيم (أكاديمية الإمام الرائد للدراسات 'التصوف وعلوم التراث) وهي تابعة للعشيرة المحمدية وهي طريقة صوفية شيخها هو محمد زكي إبراهيم ، ليشير إلى مرحلة قد يكون مشايخ التصوف جزء من الصراع السياسي على السلطة فيها ليس بشخوصهم ولا بأحزاب قد يرتدون لباسها وإنما بأفكارهم وبدعم غربي وأمريكي وخصوصا بعد أن بدأت الثورات في إضعاف التدخل الأمريكي ونقل الشرق الأوسط إلى مرحلة جديدة ستؤثر سلبا على مصالح الغرب في المنطقة.

وبحسب تقرير المؤتمر فقد شارك فيه أكثر من 300عالم من 35دولة عربية وأجنبية، وحمل مضامين وطروحات (إصلاحية) كما وصفها الحاضرين، و من أبرز أهداف المؤتمر كان ضرورة الإصلاح في المرحلة الراهنة من تاريخ الأمة، وطرح أهمية الخيار الصوفي في ضوء الخيارات المتاحة للإصلاح، كما حدد من أهدف المؤتمر إصلاح التصوف كي يمكنه 'القيام بدوره في الإصلاح، و (إعادة طرح العلاقات الدولية على أسس روحية وقيم أخلاقية).

والغريب في الأمر أن المؤتمر أخذ زخما إعلاميا واسعا بالإضافة إلى أنه الأول من نوعه للتيار الصوفي في إطار العمل الدولي، وكذلك توجيه دعوات إلى معظم القوي السياسية الفاعلة في الحراك المجتمعي الإسلامي وغيرها.

ونقلت بعض التصريحات عن الحضور من بينهم محمد عصام الدين الذي قال (إن التصوف ليس مذهبا وأن الصوفية ليست فرقة بل هي عقيدة المسلم في مشارق الأرض ومغاربها). وكذلك الدكتور حسن الشافعي أمين عام المؤتمر

ومستشار شيخ الأزهر الذي صرح (بأن وظيفة التصوف العمارة وبناء الحضارة والدفاع عن مقدسات الأمة).

أما وزير الأوقاف المصري محمد عبد الفضيل القوصي فقد طالب بتجديد الخطاب الصوفي المعاصر وتغير مصطلحاته وتحويل السلوك الصوفي إلي سلوك عملي وتوحيد الخطاب الصوفي إلي العالم الغربي مؤكدا على أن الطرق الصوفية.

وجاءت دعوة السيد عبد الهادي القصبي شيخ مشايخ الطرق الصوفية إلى كل التيارات الوطنية والإسلامية إلي التوحد والتوافق من أجل مصلحة البلاد والتصدي إلي محاولة التعدي على إرادات الشعوب في سوريا واليمن لتطرح دعوة لها بُعد سياسي يمكن أن يمهد لخطوات قادمة في مستقبل النزاع السياسي في مصر.

وذكر أبرز دعاة الصوفية الشيخ على الجفرى أن إقامة هذا المؤتمر في مصر يحقق النهضة للأمة، مضيفا أن الحكام الذين سفكوا دماء الشعوب في اليمن وسوريا فعلوا ذلك لغياب التزكية عنهم.

من جانبه قال الدكتور عبد الرحمن البر عضو مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين (يجب على الصوفيين الانتقال من الكلام النظري إلي الواقع العملي والتنفيذي وعدم اختزال العبادة في الذكر).

وكان من أبرز الحضور في المؤتمر الشيخ حسن الشافعي نيابة عن شيخ الأزهر و الدكتور على جمعة مفتى مصر، و وزير الأوقاف د.محمد عبد الفضيل القوصي، و شيخ مشايخ الطرق الصوفية السيد عبد الهادي القصبي، و مفتي مصر السابق د.نصر فريد واصل، و عصام البشير وزير الأوقاف السابق في السودان، و عبد الله بن بيه (اتحاد علماء المسلمين من موريتانيا)، ومن اللافت في هذه المؤتمر الذي من المفترض أن يكون لبحث مستقبل الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي في ظل المرحلة السياسية الحالية هو توجيه دعوة للبابا شنودة لحضور المؤتمر و حضره عنه الأنبا مرقص،

وكذلك توجيه دعوة عصام شرف رئيس الوزراء المصري ولكافة الأحزابُ السياسية العلمانية في مصر.

وكان من أهم محاور المؤتمر التي طرحت الحاجة إلى الإصلاح و تشخيص أحوال المجتمعات العربية سياسيا واقتصاديا وفكريا ، ومناهج الإصلاح الممكنة وأهمية الخيار الصوفي، و التصوف كمنهج للإصلاح، و التصوف والإصلاح (الاقتصادي – السياسي – الاجتماعي).

وقدمت كذلك مجموعة من الأبحاث بعناوين مختلفة، وكلها كان يبحث في آليات إصلاح التصوف، وتأثير التصوف في المجتمعات الأوروبية، وكذلك تأثيره على الأسرة والفرد.

وفي ختام المؤتمر طالب الحضور بضرورة الاعتراف بدولة فلسطين، بالرغم من أن فلسطين التي يريد القائمين على المؤتمر الحصول على اعتراف دولي بها قد سرق 78٪ من أرضها.

وكذلك من نتائج المؤتمر تأسيس أول إتحاد صوفي عالمي يضم الطرق والهيئات والمؤسسات والمنظمات بهدف توحيد الصف، وتعديل القانون رقم 118 لسنه 1976 الخاص بالطرق الصوفية في مصر ليتضمن قصر ولاية شيخ مشايخ الطرق الصوفة لتصبح لفترة واحده أو اثنين على الأكثر. و ضمان استقلال المشيخة الصوفية عن الدولة، كما أشاد بيان المؤتمر بالدور الفاعل للمشيخة العامة للطرق الصوفية وثمن خطاب رئيس المشيخة معتبرين ذلك ركيزة أساسية لنهضة إصلاحية.

ودعا القائمين على المؤتمر إلى إنشاء قناة فضائية تهتم بقضايا الأخلاق والقيم الروحية ونبذ العنف والتطرف والغلو ، وبين البيان الصحفي الذي صدر عن المؤتمر ضرورة عقد المؤتمر بصورة دورية سنويا.

ومن خلال التأمل في أهداف المؤتمر وطبيعة الحضور ونوعية الرسالة التي يمكن أن تفهم منه، فإننا نجد أن الصوفية وكيفية نقلها للواقع السياسي في الشرق الأوسط هي الغاية الوحيدة لهذا المؤتمر، لأن الحضور الحكومي المصري بهذا الشكل يفسر على أنه دور رعاية لهذا المؤتمر الهدف منه تشجيع المشايخ الصوفية على المشاركة في النزاع السياسي الموجود بعد خلع مبارك، وكذلك فإنها فرصة جيدة بالنسبة للإدارة الأمريكية، لأن العاطفة الدينية لدى الشعب المصري سيكون أمامها عدة خيارات في الانتخابات القادمة بدلا من خيار واحد تعتبره الولايات المتحدة لا يتماشى مع طموحاتها في المنطقة العربية وهم الإخوان المسلمين والسلفيين، لذلك فإن الحكومة المصرية والأزهر يحاولان إيجاد خيار جديد للشعب المصري من خلاله تقل فرص الإخوان والسلفيين من الفوز في الانتخابات القادمة، وكذلك يوفر غطاء إعلامي كبير لمشايخ الصوفية للقيام بدورهم الذي يريده أصحاب القرار لكي تصبح السلطة بيد (الإسلاميين العقلاء) في نظر الغرب.

* * *

حقيقة علم التصوف وأقوال العلماء والعارفين فيه :

إن حقيقة علم التصوف كما قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه الأنوار القدسية : هو العمل بالعلم والشريعة الإسلامية على وجه الإخلاص والصدق ، ولو رجعت إلى رجال التصوف الأوائل الذين أسسوه كانوا كلهم علماء عاملين دعاة إلى الله ساروا إلى الله بالكتاب والسنة المطهرة فلذلك ظهرت أنوارهم وبقيت آثارهم فالتصوف حقيقة أن تتعلم العلم الشريف الذي هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ثم يعمل بهذا العلم الذي تعلمه ثم يسعى لاكتساب الصدق والإخلاص وذلك يكون بالاستعانة بالله تعالى والعكوف على الذكر والعبادة لتصفية الروح وتزكية النفس وشفاء القلب السقيم فلا تصوف بدون علم ولا ينفع العلم بلا عمل ومن قال بغير هذا فهو ليس من التصوف في شئ ولكي يتوضح معنى التصوف

وحقيقته لابد من سرد أقوال بعض العلماء والصالحين التي تبين لنا حقيقةُ التصوف وإليك بعض الأقوال :

فهذا هو إمام أهل السنة الأمام احمد بن حنبل رحمه الله يقول : (لولده عبد الله يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة ويقول عن الصوفية لا أعلم أقواماً أفضل منهم) كتاب تنوير القلوب ص 405 وغذاء الألباب لشرح منظومة الآداب للسفاريني 1\120

وهذا هو حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله يقول : (ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق) . كتابه المنقذ من الضلال صفحة 49

وهذا هو سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمة الله يقول : (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تتهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم) كتاب نور التحقيق للشيخ حامد صغر ص 96

ويقول الأمام مالك رحمة الله تعالى :) من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق) من حاشية العلامة على العدوي على شرح الأمام الزرقاني على متن العزبة في الفقه المالكي ، وشرح عين العلم وزين الحلم للأمام ملا علي قاري .

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : (حبب إلى من دنياكم ثلاث : ترك التكلف وعشرة الخلق بالتلطف والإقتداء بطريق أهل التصوف) . من كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للأمام العجلوني

وهذا هو الأمام الحجة شيخ الشافعية النووي رحمه الله وهو ثقة بإجماع الأمة يقول : (أصول طريق التصوف خمسة : تقوى الله في السر والعلانية ، إتباع السنة في

الأقوال والأفعال ، الأعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار ، الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير ، الرجوع إلى الله في السراء والضراء) كتاب مقاصد الإمام النووي والتوحيد والعبادات وأصول التصوف ص 20

قال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى : الباب الثامن في أحوال الصوفية " : أعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية ، وهذا طريق حسن ، وقال أيضاً : والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية ، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم ، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل وهؤلاء هم خير فرق الآدميين . في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين

وتحدث الأمام أحمد ابن تيمية رحمة الله تعالى عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة فقال : (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ حماد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين ، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت . وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، وهذا كثير من كلامهم) . الجزء العاشر من مجموع فتاويه

وقال تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى تحت عنوان الصوفية : حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم وقد تشبعت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها ، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني : لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حد لهم . والصحيح صحته ، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة .... ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال : والحاصل

أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجي الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم . كتابه معيد النعيم ومبيد النقم

وهذا هو الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى يقول : إن كثيراً من الجُهَّال يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الإتباع والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون وحاشاهم (الصوفية) من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به فأول شي بنوا عليه طريقهم إتباع السنة واجتناب ما خالفها ، الاعتصام لشاطبي.

وهذا هو الإمام السيوطي رحمه الله تعالى يقول : أن التصوف في نفسه علم شريف وأن مداره على أتباع السنة وترك البدع وعلمت أيضاً أنه قد كثر الدخيل فيه من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم فأدخلوا فيه ما ليس منه فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع ، كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص57 .

وقال الإمام المحاسبي رحمه الله تعالى : (فأصبحت راغباً في مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم قابلا لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا اعدل بهم شيئاً ، ولا أوثر عليهم أحداً ، ففتح الله لي علما اتضح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن اقرَّ به أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرَّيْن متراكماً على قلب من جهله وجحده ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً علي فاعتقدته في سريرتي ،وانطويت علية بضميري ، وجعلته أساس ديني وبنيت عليه أعمالي وتقلَّبْت فيه بأحوالي وسألت الله عز وجلَّ أن يوزِعَني شكر ما أنعم به علي وان يقويني عليَّ القيام بحدود ما عرَّفني به ، مع معرفتي بتقصيري في ذلك ، وأني لا أدرك شكره أبداً) كتاب الوصايا ص 27 _32 للأمام أبي عبد الله الحارث المحاسبي المتوفى 243هـ .

وقال ابن خلدون رحمه الله تعالى في علم التصوف : (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية ، وأصلها العكوفُ

على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراضُ عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفرادُ عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) مقدمة ابن خلدون ص 328 .

ويقول ابن عابدين رحمة الله تعالى : (ولا كلام لنا مع الصُدَّق من ساداتنا الصوفية المبرئين عن كل خصلة رديَّة ، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد : إن أقواما يتواجدون ويتمايلون ؟ فقال دعوهم مع الله تعالى يفرحون ، فإنهم قوم قطعت الطريق اكبادَهم ، ومزَّق النصبُ فؤادهم ، وضاقوا ذرعا فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم) . الرسالة السابعة ، شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل ص 172_173 للفقيه الكبير ابن عابدين

وقال أبو الحسن الندوي رحمه الله في كتابه المسلمون في الهند : يقول أبو الحسن الندوي في كتابه المسلمون في الهند: " إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئه والظلم والقسوة ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنه والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعه والإيثار، وعلاوة على هذه البيعه التى كانت رمز الصله العميقه الخاصه بين الشيخ ومريديه إنهم كانوا يعضون الناس دائما، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديده لإصلاح النفس وتغيير الحال

اعتقد أن أقوال هؤلاء العلماء بينت وبشكل واضح حقيقة التصوف وبينت أن التصوف هو علم شريف ومستمد من الشرع وقائم على الشرع ولا يخرج عن الشرع فكيف يأتي سفيه ويقول أن التصوف علم مبتدع وليس له أصل في الشريعة وهو زندقة ورجاله زنادقة أعتقد أن هذا الكلام لا يخرج إلا من جاهل وحتى لا يأتي

احد ويسرد لنا أقوال بعض المتصوفة التي تخلف الشرع ويحتج علينا بها فسنذكر أقوال رجال التصوف المعتمدين الكبار رحمهم الله تعالى لنبين حقيقة التصوف بشكل واضح وجلي فإليك أقوال العارفين أئمة التصوف بل ومؤسسي علم التصوف رحمهم الله تعالى :

فهذا هو سلطان الأولياء والعارفين سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول :كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة ، طر إلى الحق عزّوجلّ بجناحي الكتاب والسنة ادخل عليه ويدك في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية . الفتح الرباني ص 179 . ويقول كل باطن خالف ظاهراً فهو باطل

وهذا الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر باذي رحمه الله يقول: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء ، والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ،والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل احدٌ ف بهذا الطريق إلا بفساد الابتداء يؤثر في الانتهاء ، طبقات الصوفية ص 488

وقال الشيخ أبو بكر الكتاني محمد ىن علي رحمه الله : التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف ، طبقات الصوفية ص 145

وقال سيد الطائفتين العارف بالله أبو القاسم الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى :
الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته ،فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه ، طبقات الصوفة ص 159

.

ويقول : (من لم يحفظ القران ولم يكتب الحديث لا يقتدي بـه في هـذا الأمـر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي عن الصوفي : إنَّ سالك سبيل الله قليـل والمدعي فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له ، الأولى : أن تكـون جميـع أفعالـه موزونـة بميزان الشرع موقوفة على توفيقاتـه إيـرادا وإصـدارا وإقـداما وإحجامـا إذ لا يمكـن سلوك هذا السيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها والثانية : لا يصل فيـه إلا مـن واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إلية من أهمل الفرائض .

وقد أثر عن السري السقطي رحمه الله تعالى أنـه كـان يقـول: التـصوف اسـم لثلاثة معاني هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعة ولا يتكلم بباطن في علم ينقـضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتـك أسـتار محـارم الله ويقـول : المتصوف لا يتكلم بباطن علم ينقضه علية ظاهر الكتاب والسنَّة .

وورد عن العارف بالله الشيخ أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى أنه يقول : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتـى تنظـروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

ويقول أبو الحسن الشاذلي رحمة الله : إذا تعارض كشفك مع الكتـاب والـسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك أنَّ الله تعالى ضـمن لي العـصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها علي الكتاب والسنة إلى غيرِ ذلك من الأقـوال الكثـيرة التـي تبـين إن الاسـتقامة عـلى الشريعة المطهرة هي أفضل من أي كرامة .

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس سره : لا يرتجي الوصول مـن لم يتبَّـع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله : من ألزم نفسه آداب السنةُ نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال الإمام سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : أصول طريقتنا ـ أي منهج الصوفية ـ سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، لزوم التوبة ، وأداء الحقوق .

وقال أبو حفص احد كبار الصوفية : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال .

وورد عن العارف بالله الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى أنه يقول : قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لا يتصدر في الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في مقدمة رسالته المشهورة متحدثاً عن الصوفية : (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضَّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصَّهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق . صفَّاهم من كدورات البشرية ، ورقَّاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفَّقهم للقيام بآداب العبودية ، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما مَنَّة سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتَّكِلوا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جلَّ وعلاً يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل ، وأمره قضاء فصل) . الرسالة القشيرية للأمام أبي القاسم القشيري ص2.

هذا شي من أقوال أئمة التصوف وأعلام الصوفية ونجدها كلها تـدور حـول إتباع الكتاب والسنة والابتعاد عما يخـالفها وكلهـا تـدعو إلى مكـارم الأخـلاق ، وإلى الخوف من الله تعالى ، وإلى تقواه وابتغاء رضاه ، تدعو إلى السخاء والحاصل أنها تدعو إلى جماع الخير وتنهي عن جماع الشر وفي هذا تبين لنا حقيقة التـصوف وهـي أنـه علـم يقصد به صلاح المسلم والوصول إلى رضا الله والالتزام بالـشريعة وتـرك مـا خالفهـا بالكلية وهذه هي غاية خلق الإنسان على هذه الأرض وفي هذا بيان واضح لمن أراد أن يتعرف على حقيقة التصوف . فهل فيها ذكر شئ لا يرضاه الله ورسـوله صـلى الله عليـه وسلم؟! هل في هذا مالا يرضي العقل والدين ؟! اعتقد لا فهذا هو التصوف وهـؤلاء هم الصوفية وما خالف هذا نضربه عرض الجدار بل ونضربه بنعالنا ونطئ علية تحت الثرى .

واختم بقول سيدي الشيخ العارف بالله عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : (طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة فمن خالفها فليس منا) وفي هـذا القـدر كفايـة لمـن أراد أن يعرف حقيقة التصوف والصوفية . فإن كان هذا هو التصوف فأي علم اشرف من هذا العلم والله أعلم .

***

التصوف في مقدمة ابن خلدون

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة و أصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة و كبارها من الصحابة و التابعين و من بعدهم طريقة الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها، و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال و جاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة و كان ذلك عاما في الصحابة و السلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني و ما بعده و جنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية و المتصوفة. و قال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية و لا قياس. و الظاهر أنه لقب. و من قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال:

و كذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه. قلت: و الأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف و هم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من فخالفه الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد و الانفراد عن الخلق و الإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم و ذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك و إدراكه نوعان: إدراك للعلوم و المعارف من اليقين و الفن و الشك و الوهم و إدراك للأحوال القائمة من الفرح و الحزن و القبض و البسط و الرضى و الغضب و الصبر و الشكر و أمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات و إرادات و أحوال و هي التي يميز بها الإنسان. و بعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة و الفرح و الحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به و النشاط عن الحمام و الكسل عن الإعياء. و كذلك المريد في مجاهدته و عبادته لابد و أن ينشأ له عن في مجاهدة حال نتيجة تلك

المجاهدة. و تلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ و تصير مقاما للمريد و إما أن لا تكون عبادة و إنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات. و لا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد و المعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال صلى الله عليه و سلم: من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة فالمريد لابد له من الترقي في هذه الأطوار و أصلها كلها الطاعة و الإخلاص و يتقدمها الإيمان و يصاحبها، و تنشأ عنها الأحوال و الصفات نتائج و ثمرات. ثم تنشأ عنها أخرى و أخرى إلى مقام التوحيد و العرفان. و إذا وقع، تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. و كذلك في الخواطر النفسانية و الواردات القلبية. فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله و ينظر في حقائقها لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري و تصورها من الخلل فيها كذلك.

و المريد يجد ذلك بذوقه و يحاسب نفسه على أسبابه. و لا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة. و غاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء و الامتثال. و هؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق و المواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أو لا، فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال و التروك و الكلام في هذه الأذواق و المواجد التي تحصل عن المجاهد ت ثم تستقر للمريد مقاما يترقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم و اصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمة منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. و صار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء و أهل الفتيا و هي الأحكام العامة في العبادات و العادات و المعاملات.

و صنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة و محاسبة النفس عليها و الكلام في الأذواق و المواجد العارضة في طريقها و كيفية الترقي منها من ذوق إلى

ذوق و شرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك. فلما كتبت العلوم و دونت و ألف الفقهاء في الفقه و أصوله و الكلام و التفسير وغير ذلك. كتب رجال من أهل هذه الطرقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع و محاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ و الترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة و السهرودي في كتاب عوارف المعارف و أمثالهم. و جمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء فدون فيه أحكام الورع و الاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم و شرح اصطلاحاتهم في عباراتهم و صار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط و كانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير و الحديث و الفقه والأصول و غير ذلك.

ثم إن هذه المجاهدة و الخلوة و الذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس و الاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. و الروح من تلك العوالم. و سبب هذا الكشف أن. الروح إذا رجع في الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس و قويت أحوال الروح و غلب سلطانه و تجدد نشؤه أعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح و لا يزال في نمو و تزيد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما. و يكشف حجاب الحس، و يتم وجود النفس التي لها من ذاتها. و هو عين الإدراك. فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية و العلوم اللدنية و الفتح الإلهي و تقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة. و هذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود مالا يدرك سواهم و كذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها و يتصرفون بهممهم و قوى نفوسهم في الموجودات السفلية و تصير طوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف و لا يتصرفون و لا يخبرون عنْ حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة و يتعوذون منة إذا هاجمهم.

و قد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة و كان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظْ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. و في فضائل أبي بكر و عمر و عثمان و علي رضي الله عنهم كثير منها. و تبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت

رسالة القشيري على ذكرهم و من تبع طريقتهم من بعدهم. ثم إن قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب و الكلام في المدارك التي وراءه و اختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية و تغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها و تغذيتها فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ و أنهم كشفوا ذوات الوجود و تصوروا حقائقها كلها من العرش ثم إلى الطش. هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.

ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم إلا إذا كان ناشئا عن الاستقامة لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع و الخلوة و إن لم يكن هناك استقامة كالسحرة و غيرهم من المرتاضين.

و ليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة و مثاله أن المرآة الصقيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة و حوذي بها جهة المرئي فإنه يتشكل فيه معوجا على غير صورته. و إن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحا. فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال. و لما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية و السفلية و حقائق الملك و الروح و العرش و الكرسي و أمثال ذلك. و قصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم و مواجدهم في ذلك. و أهل الفتيا بين فنكر عليهم و مسلم لهم. و ليس البرهان و الدليل بنافع في هذا الطريق ردا و قبولا إذ هي من قبيل الوجدانيات.

تفصيل و تحقيق: يقع كثيرا في كلام أهل العقائد من علماء الحديث و الفقه أن الله تعالى مباين لمخلوقاته. و يقع للمتكلمين أنة لا مباين و لا متصل. و يقع للفلاسفة أنة لا داخل العالم و لا خارجه. و يقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات: إما بمعنى الحلول فيها، أو بمعنى إنه هو عينها. و ليس هناك غيره جملة و لا تفصيلا. فلنبين تفصيل هذه المذاهب و نشرح حقيقة كل واحد منها، حتى تتضح معانيها فنقول، إن المباينة تقال لمعنيين:

أحدهما المباينة في الحيز و الجهة، و يقابله الاتصال. و نشعر هذه المقابلة على هذه التقيد. بالمكان إما صريحا و هو تجسيم، أو لزوما و هو تشبيه من قبيل القول بالجهة. و قد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباينة، فيحتمل غير هذا المعنى. و من أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا: لا يقال في البارئ أنة مباين مخلوقاته، و لا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمتحيزات. و ما يقال من أن المحل لا يخلو عي الاتصاف بالمعنى و ضده. فهو مشروط بصحة الاتصاف أولا، و أما مع امتناعه فلا، بل يجوز الخلو عن المعنى و ضده. كما يقال في الجماد، لا عالم و لا جاهل، و لا قادر و لا عاجز ولا كاتب و لا أمي. و صحة الاتصاف بهذه المباينة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها. و البارئ سبحانه منزه عن ذلك. ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين و قال: و لا يقال في البارئ مباين للعالم و لا متصل به، و لا داخل فيه و لا خارج عنة. و هو معنى ما يقول الفلاسفة أنة لا داخل العالم و لا خارجه، يناء على وجود الجواهر غير المتحيزة. و أنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارئ في أخص الصفات. و هو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الآخر للمباينة، فهو المغايرة و المخالفة فيقال: البارئ مباين لمخلوقاته في ذاته و هويته و وجوده و صفاته. و يقابله الاتحاد و الامتزاج والاختلاط. و هذه المباينة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف و علماء الشرائع و المتكلمين و المتصوفة الأقدمين أهل الرسالة و من نحا منحاهم. و ذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية، إلى أن البارئ تعالى متحد بمخلوقاته في هويته و وجوده و صفاته. و ربما زعموا أنة مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، مثل أفلاطون و سقراط، و هو الذي يقينه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة و يحاولون الرد عليه لأنه ذاتان، تنتفي إحداهما، أو تندرج اندراج الجزء. فإن تلك مغايرة صريحة. و لا يقولون بذلك. و هذا الاتحاد هو الحلول الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام و هو أغرب لأنه حلول قديم في محدث أو اتحاده به. و هو أيضا عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة. و تقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين:

الأولى: أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها و معقولها، متحدة بها في المتصورين، و هي كلها مظاهر له، و هو القائم عليها، أي المقدم لوجودها بمعنى لولاه كانت عدما و هو رأي أهل الحلول.

الثانية: طريق أهل الوحدة المطلقة و كأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد، فنفوها بين القديم و بين المخلوقات في الذات و الوجود و الصفات. و غالطوا في غيرية المظاهر المدركة بالحس و العقل بأن ذلك من المدارك البشرية، و هي أوهام. و لا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم و الفن و الشك، إنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة، و وجود في المدرك البشري فقط. و لا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر و لا في الباطن كما نقرره بعد، بحسب الإمكان. و التعويل في تعقل ذلك على النظر و الاستدلال: كما في المدارك البشرية، غير مفيد، لأن ذلك إنما نقل من المدارك الملكية، وإنما هي حصلة للأنبياء بالفطرة و من بعدهم للأولياء بهدايتهم. و قصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال. و ربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات و ترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى يالأغمض فالأغمض.

و ربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود و ترتيب حقائقه فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر و الاصطلاحات و العلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل و ترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدية و هما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير. و يسمون هذا الصدور بالتجلي. و أول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه و هو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد و الظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني و هذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود و تفصيل الحقائق و هو عندهم عالم المعاني و الحضرة الكمالية و الحقيقة المحمدية و فيها حقائق الصفات و اللوح و القلم و حقائق الأنبياء و الرسل

أجمعين و الكمل من أهل الملة المحمدية. و هذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. و يصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية و هي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرتق فإذا تجلت فهي في عالم الفتق. و يسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي و المظاهر و الحضرات و هو كلام لا يقتدر أهل النظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه و انغلاقه و بعد ما بين كلام صاحب المشاهدة و الوجدان و صاحب الدليل. و ربما أنكر بظاهر الشرع. هذا الترتيب و كذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة و هو رأي أغرب من الأول في تعقله و تفاريعه. يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات و صورها و موادها. و العناصر إنما كانت بما فيها من القوى و كذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها.

ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب، كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها و زيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية و زيادة قوتها في نفسها و كذا القوة الإنسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية و زيادة. و كذا الذوات الروحانية و القوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية و جزئية و جمعتها و أحاطت بها من كل وجه. لا من جهة الظهور و لا من جهة الخفاء و لا من جهة الصورة و لا من جهة المادة فالكل واحد و هو نفس الذات الإلهية و هي في الحقيقة واحدة بسيطة و الاعتبار هو المفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مندرجة فيها و كائنة بكونها. فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع، في كل موجود كما ذكرناه و تارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال. و هم في هذا كله يفرون من التركيب و الكثرة بوجه من الوجوه و إنما أوجبها عندهم الوهم و الخيال. و الذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه. و كذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي، بل و الموجودات المعقولة و المتوهمة أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم

يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر و البرد و الصلابة و اللين بل والأرض و الماء و النار و السماء و الكواكب، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود و إنما هو في المدارك فقط فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل إنما هو إدراك واحد و هو أنا لا غيره. و يعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام و فقد الحس الظاهر فقد كل محسوس و هو في تلك الحال إلا ما يفصله له الخيال. قالوا: فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه لبشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل و هذا هو معنى قولهم الموهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية.

هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان و هو في غاية السقوط لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه و إليه يقينا مع غيبته عن أعيننا و بوجود السماء المظلة و الكواكب و سائر الأشياء الغائبة عنا. و الإنسان قاطع بذلك و لا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة و يسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات و يعبرون عن ذلك بمقام الفرق و هو مقام العارف المحقق و لابد للمريد عندهم من عقبة الجمع و هي عقبة صعبة لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم إن كل هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف و فيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول و الوحدة كما أشرنا إليه و ملئوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له و غيره. و تبعهم ابن العربي و ابن سبعين و تلميذهما ابن العفيف وابن الفارض و النجم الإسرائيلي في قصائدهم.

و كان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول و إلهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر. و اختلط كلامهم و تشابهت عقائدهم. و ظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب و معناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله. ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان. و قد أشار إلى ذلك

ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها فقال: جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد. و هذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية، و لا دليل شرعي و إنما هو من أنواع الخطابة و هو بعينه ما تقوله الرافضة و دانوا به. ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء. حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم و نحلتهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه و هو من هذا المعنى أيضا. و إلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخليه و لا طريقة في لباس و لا حال. بل كان أبو بكر و عمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم و أكثرهم عبادة. و لم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين و الزهد و المجاهدة.

تشهد بذلك سيرهم و أخبارهم، نعم إن الشيعة يخيلون بها ينعلون من ذلك اختصاص علي رضي الله عنه بالفضائل دون من سواه من الصحابة ذهابا مع عقائد التشيع المعروفة لهم. و الذي يظهر أني المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، و ظهر كلامهم في الإمامة و ما يرجع إليها ما هو معروف، فاقتبسوا من ذلك الموزانة بين الظاهر و الباطن و جعلوا الإمامة لسياسة الخلف في الانقياد إلى الشرع، و أفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين، و أفردوه بذلك تشبيها بالإمام في الظاهر و أن يكون على وزانه في الباطن و سموه قطبا لمدار المعرفة عليه، و جعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه فتأمل ذلك.

يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي و ما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات و إنما هو مأخوذ من كلام الشيعة و الرافضة و مذاهبهم في كتبهم. و الله يهدي إلى الحق.

تذييل: و قد رأيت أن أجلب هنا فصلا من كلام شيخنا العارف كبير الأولياء بالأندلس، أبي مهدي عيسى بن الزيات كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي

التي وقعت له في كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة أو يكاد يصرح بها و بقوله:

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته تثنيه أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده و نعت من ينعته لاحد

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: استشكل الناس إطلاق لفظ الجمود على كل من وحد الواحد و لفظ الإلحاد على من نعته و وصفه. و استبشعوا هذه الأبيات و حملوا قائلها على الكفر و استخفوه. و نحن نقول على رأي هذه الطائفة أن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القدم و أن الوجود كله حقيقة واحدة وانية واحدة. و قد قال أبو سعيد الخزار من كبار القوم: الحق عين ما ظهر و عين ما بطن. و يرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الاثنينية. و هم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الضلال و الصدا و المرآى. و أن كل ما سوى عين القدم، إذا استتبع فهو عدم. و هذا معنى: كان الله، و لا شيء معه، و هو الآن على ما هو عليه كان عندهم. و معنى قول كبير الذي صدقه رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله: ألا كل شيء، ما خلا الله باطل. قالوا: فمن وحد و نعت، فقد قال بموجد محدث. هو نفسه، و توحيد محدث هو فعله، موجود قدير، هو معبود.

و قد تقدم معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث، و عين الحدوث، الآن ثابتة بل متعددة، و التوحيد مححود والدعوى كاذبة كمن يقول لغيره، و هما معا في بيت واحد: ليس في البيت غيرك، فيقول الآخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عدمت أنت ! و قد قال بعض المحققين في قولهم: خلق الله الزمان، هذه ألفاظ تناقض أصولها لأن خلق الزمان متقدم على الزمان و هو فعل لابد من وقوعه في الزمان. و إنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق و عجز اللغات عن تأدية الحق فيها و بها. فإذا تحقق أن الموحد هو الموحد، و عدم ما سواه جملة. صح التوحيد حقيقة. و هذا معنى قولهم لا يعرف الله إلا الله و لا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم و الآثار، و إنما هو من

باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين. لأن ذلك لازم التقييد و العبودية و الشفعية. و من ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصا، مع علمه بمرتبته، و أنه تلبيس تستلزمه العبودية و يرمعه الشهود و يطهر من دنس حدوثه عين الجمع. و أعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة. و مدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد، و إنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض و التنبيه و التفطين لمقام أعلى ترتفع فيه الشفعية و يحصل التوحيد المطلق عينا لا خطابا. و عبارة: فمن سلم استراح و من نازعته حقيقة أنس بقوله: كنت سمعه و بصره. و إذا عرفت المعاني لا مشاحة في الألفاظ. و الذي يفيده هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور، لا نطق فيه و لا خبر عنه. و هذا المقدار من الإشارة كاف. و التعمق في مثل هذا حجاب. و هو الذي أوقع في المقالات المعروفة. انتهى كلام الشيخ أبي مهدي الزيات، و نقلته من كتاب الوزير أبي الخطيب الذي ألفه في المحبة. و سماه التعريف بالحب الشريف. و قد سمعته من شيخنا أبي مهدي مرارا. إلا أني رأيت رسوم الكتاب أوعى له. لطول عهدي به. و الله الموفق.

ثم إن كثيرا من الفقهاء و أهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات و أمثالها و شملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة. و الحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع: أحدها الكلام على المجاهدات و ما يحصل من الأذواق و المواجد و محاسبة النفس على أعمالها لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما و يترقى منة إلى غيره كما قلناه و ثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية و العرش و الكرسي والملائكة و الوحي و النبوة و الروح و حقائق كل موجود غائب أو شاهد و تركيب الألوان في صدورها عن موجودها و تكونها كما مر، و ثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات، و رابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر و محسن و متأول. فأما الكلام في المجاهدات و المقامات و ما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها و محاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد و أذواقهم فيه صحيحة و التحقق بها هو عين السعادة. و أما الكلام في كرامات القوم و أخبارهم بالمغيبات و تصرفهم في

الكائنات. فأمر صحيح غير منكر. و إن مآل بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق. و ما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي و هو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق. فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها و هو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات و إنكارها نوع مكابرة. و قد وقع للصحابة و أكابر السلف كثير من ذلك و هو معلوم مشهور. و أما الكلام في الكشف و إعطاء حقائق العلويات و ترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني عندهم و فاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. و اللغات لا تعطى له دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع إلا للتعارف و أكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك و نتركه فيما تركناه من المتشابه و من رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة. و أما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات و يؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس و الواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه و صاحب الغيبة غير مخاطب و المجبور معذور. فمن علم منهم فضله و اقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا و أمثاله و أن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد البسطامي و أمثاله. و من لم يعلم فضله و لا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. و أما من تكلم بمثلها و هو حاضر في حسه و لم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا. و لهذا أفتى الفقهاء و أكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور و هو مالك لحاله. و الله أعلم.

و سلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب و لا هذا النوع من الإدراك إنما همهم الاتباع و الاقتداء ما استطاعوا. و من عرض له شيء من ذلك أعرض عنه و لم يحفل به بل يفرون منه و يرون أنه من العوائق و المحن و أنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث و أن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. و علم الله أوسع و خلقه أكبر

و شريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون. بل حظروا الخوض في ذلك و منعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه و الوقوف عنده بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع و الاقتداء و يأمرون أصحابهم بالتزامها. و هكذا ينبغي أن يكون حال المريد و الله الموفق للصواب.

***

موقف ابن خلدون من علمي الكلام والتصوف:

مقدمة

تنطلق هذه الدراسة من فكرتين تبرران موقف صاحب "المقدمة" و" شفاء السائل لتهذيب المسائل" من علم الكلام ومن التصوف، كما تبرران الجمع بينهما في دراسة واحدة.

يتمثل المنطلق الأول في المنزلة التي وضع فيها "مالك بن نبي"(1905-1974) ابن خلدون، ضمن تفسيره الروحي والدوري[1] للحضارة وللتاريخ، حيث عده خلاصة الحضارة الإسلامية، وآخر حلقة في سلسلة ازدهارها، لتأتي بعده سلسلة النزول والاضمحلال والخروج عن دورة الحضارة والدخول في الليل الطويل للتاريخ. وهي المنزلة التي تعكس موقف ابن خلدون من علم الكلام ومن التصوف باعتبارهما من العلوم الحادثة. فالملّة بطاقتها الروحية هي المولدة للحضارة والدافعة لها

دفعة أولى، حسب مالك بن نبي، والتي تجسدت في الحضارة الإسلامية انطلاقا من نزول الوحي إلى غاية معركة صفين. ثم جاءت بعدها مرحلة العقل التي امتدت في الحضارة نفسها من معركة صفين إلى عهد ابن خلدون« الذي أضاءت عبقريته غروب الحضارة الإسلامية في نهايتها»[2]. ثم نزل امنحنى البياني لمسيرة الحضارة في مرحلة سماها "بن نبي": "مرحلة الغريزة" لتنغمس تدريجيا في لجج التخلف والتبعية لحضارة الغير.

وأما المنطلق الثاني فهو عبارة عن قول لسيد الطائفة الجنيد، استدل به ابن خلدون في خاتمة الفصل الذي خصه لعلم الكلام في "المقدمة"، ويمهد في الآن نفسه لما سيأتي في الفصل الموالي الخاص بالتصوف، حيث يورد ابن خلدون هذا النص بقوله:« ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم بعض المتكلمين يفيضون فيه فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص، فقال: نفيُ العيبِ حيث يستحيلُ العيبُ عيبٌ.»[3] فالذي يفهم من هذا النص أن البديل عن العقل في معرفة الحق وتوحيده هو الكشف مع النص لا العقل. ولكن لا يعني هذا أن كل كشف دال على علم يقيني، كما إن منهج العقل ليس مرفوضا على الإطلاق. وهذا من مبررات جمع هذه المداخلة لموقف ابن خلدون من علمين، يرفض فيهما أمورا ويقبل بأخرى، وقد يأتي الواحد منهما بديلا عن الثاني. وأما باقي المبررات فنوجزها على النحو الآتي.

من مبررات الجمع بين علم الكلام والتصوف في الحديث عن موقف ابن خلدون منهما:

لقد عدّ ابن خلدون كلا من علم الكلام والتصوف من العلوم الحادثة في الملة، وإن لم يذكر التصوف كعلم نقلي أو شرعي[4] غير أن وضعهما متتاليين في "المقدمة" بما يوحي بأن التصوف قد يعوض عم الكلام، كما يوحي بتداخل بينهما يكمن في ما يعنى به كل علم وهو الباطن والأصول، في مقابل الظاهر الذي هو من مهمة الفقيه المعني بالفروع؛ بمعنى أن التصوف وعلم الكلام يهمهما جانب

التصورات في الدين، أو الجانب القلبي، في مقابل اهتمام الفقه بالجانب العملي. ويُعبر عن كل هذا بثنائية ظاهر الدين وباطنه، أو ثنائية الشريعة والحقيقة. فالتصوف وعلم الكلام همهما الحقيقة، والاعتقاد الصحيح بها. ولكن مثل هذا الهم المشترك لا يعني أن العلاقة بين العلمين علاقة هوية، فالكلام ليس هو التصوف، فقد يحدث التداخل بينهما، ولكن يبقى لكل علم ما يتميز ويتفرد به.

وبناء عليه كيف نفسر موقف ابن خلدون من علمين في ظروف مكانية وزمانية بعيدة عن ظروف نشأتهما، خاصة وأن علم الكلام نضج لما كانت الحضارة الإسلامية في أوج عطاءاتها، وكانت الاختلافات الكلامية بالرغم من حدتها أحيانا تعكس مستوى راق من التفكير وتهدف إلى الإقناع بالحجة والبرهان، على اختلاف تنوع البراهين وتعددها والتي يصفها الفارابي ببراعة في إحصاء العلوم. في حين يحكم ابن خلدون بعد كل هذا بزمن طويل بأن علم الكلام فقد مبررات وجوده. ولا يتخذ الموقف نفسه من التصوف، بالرغم من أنه شكل منذ نشأته جدلا واسعا حول مشروعيته ومدى أصالته، كما يطرح تساؤلا حول حقيقته هل يعبر عن قمة فكر وكمال المسالك النظرية والعملية، أم يعبر عن هروب عن الواقع وارتماء في أحضان السلبية والاستسلام، وبالأحرى هل هو ظاهرة سلبية أم إيجابية في المجتمع؟ وهل يعكس تواجده في عهد ابن خلدون تمسكا بالدين أم تخلي عن العقل وعن مقاليد الحضارة؟

ومن الأمور التي تستدعي الحديث عن العلمين مع وموقف ابن خلدون منهما هو أهمية الغزالي ومنزلته في الغرب الإسلامي، إذ يعتبر أبو حامد سببا جوهريا في تداخل علم الكلام بالتصوف، نظرا لأثره الكبير الذي كان ولا يزال على عقيدة المغاربة وعلى تجاريبهم الصوفية، كما له الأثر في رفضهما لتعلقهما بالفلسفة لرفضه هو الفلسفة والحكم على أصحابها بالكفر والخطأ خاصة في الإلهيات. لهذا كانت تجربة الغزالي الصوفية دوما مساوقة لآرائه العقدية.

بالرغم من وصول المذهب الأشعري المغرب الإسلامي في وقت مبُكر إلا أن ذيوعه من خلال الغزالي كان أكبر وأكثر تأثيرا، والسبب قد يكون حملة المرابطين عليه مما ولد نتيجة عكسية من جهة، وظهور شخصيات مغاربية مؤثرة كانت مشبعة بفكر الغزالي وحاملة في الآن نفسه لتجربته الصوفية، أمثال: أبي بكر ابن العربي المعافري والمهدي بن تومرت وأبي مدين شعيب، من جهة ثانية. ولهذا كله حيث كان التصوف بالمغرب كانت العقيدة الأشعرية ممثلة بفكر الغزالي وتجربته، لكن بنسب متفاوتة من شخص لآخر، فأثر الغزالي العقدي كان بارزا بشكل واضح في ابن العربي الفقيه وابن تومرت في حين الأثر الصوفي كان أظهر عند أبي مدين شعيب و من بعده ابن العربي الصوفي، ولو أن الجميع ساهم في عودة الغزالي إلى المغرب الإسلامي بقوة، ولم تفلح حملة ابن رشد بتهافت التهافت في الإنقاص من قيمة حجة الإسلام بالرغم مما أحدثته من أثر وقد يكون ذلك الأثر واضحا إلى حد ما في فكر ابن خلدون الجامع بين عقيدة أشعرية ومذهب مالكي مفعم بعقلانية رشدية وأخرى سينوية.

لقد أراد ابن خلدون أن يكون غزاليا في المغرب بعقيدته الأشعرية، وبتصوفه السني، و بنقده للفلاسفة، ولكن منهجه في تفسيره للوقائع ولبعض الأفعال تفسيرا عقليا ينم عن أثر سينوي رشدي، وقد يكون سينويا أكثر لما يميز فلسفة ابن سينا المفتوحة على التصوف خلافا لفلسفة ابن رشد المنتصرة للعقل على حساب الكشف. ويعكس كل هذا تداخلا لا يمكن إنكاره بين مختلف العلوم السائدة في الحضارة الإسلامية وبصفة خاصة بين الكلام والتصوف والفلسفة، بالرغم من أن تبرير الوجه الرافض من ابن خلدون للكلام وللتصوف بسبب علاقتهما بالفلسفة.

لهذا هناك من ذهب إلى أن القرون الهجرية الثلاثة: السابع والثامن والتاسع ميزها تداخل وتعايش العلوم الدينية والعقلية. فلقد كان الصوفية «من المشتغلين بعلوم الحديث والأصلين والأمور العقلية والخلافيات الفقهية جميعا...وهذه المعايشة السلمية بين التصوف والعلوم العقلية والدراسات الفقهية في الشمال الإفريقي، إبان هذه القرون الثلاثة، مثال طيب يستدل به على أن الحياة العقلية الروحية كل لا يتجزأ. وعلى أن علوم الحقيقة لا تتنافى بالضرورة مع علوم الشريعة، وعلى أن علوم الباطن

متممة لعلوم الظاهر. ولا تفسير في رأيي لهذه المعايشة السلمية بين التصوف والفقه و المعقول والمنقول عند رجال هذه القرون إلا إذا أرجعناها إلى سببين: قوة الروح الدينية عندهم من ناحية، وعدم غلبة الجدل عندهم من ناحية ثانية»[5]

•

ثم إن من مبررات جمعنا بين الكلام والتصوف ههنا هو الرابط الفلسفي الذي يجمعها وهو مبرر رفض ابن خلدون لهما، ثم الرابط الديني الأصيل أو العقيدة الصحيحة التي تجمعها وهو مبرر قبول ابن خلدون لهما . إن موقفه في نهاية المطاف من علم الكلام ومن التصوف تعكسه أصالة ونقاوة العقيدة وبدعة وضلال الفلسفة وعقائد الباطنية. وهو الأمر الجامع لعلم الكلام بالتصوف ههنا كما أنه الأمر الذي يعكس انتماء ابن خلدون العقدي للأشاعرة، من جهة، ومنصب الفتيا وقربه من السلطان من جهة أخرى، كما يعكس سعة إطلاع الرجل على العلوم التي سادت الحضارة الإسلامية وأصولها أيضا، ومع هذه السعة اضطراب في المواقف لتعدد المعارف واختلافها باختلاف الظروف والأحداث التي عاشها ابن خلدون مع الكم الهائل من الوقائع التي أرخ لها وعمل على تصحيحها وتوخي العقلانية في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج منها.

وفي الأخير، وبالنظر إلى تواجد ابن خلدون في آخر عربة في قطار الحضارة الإسلامية هل يمكن اعتبار التصوف من وجه ما بأنه نهاية الكلام والفلسفة بحيث يقدم كحلول قطعية يجب التسليم بها دون براهين بحجة عجز العقل وكثرة خطأه كما أسس لذلك الغزالي؟ وإن كان مثل هذا الكلام يخالفه عبد الوهاب الشعراني[6] (898هـ/ 1493م-973هـ/ 1565م) التلميذ غير المباشر لابن خلدون، صاحب كتاب اليواقيت والجواهر، وهو كتاب وإن ألفه في الدفاع عن ابن العربي الصوفي، ردا على هجمات الفقهاء عليه، بما فيهم ابن خلدون، سواء في المقدمة أو في "الشفاء"، غير أنه عمل فيه على البرهنة على أن النظر لا يعارضه الكشف، يقول الشعراني عن مؤلفه:« هذا كتاب ألفته في علم العقائد...حاولت فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر...فقصدت بيان وجه الجمع بينهما لتأييد كلام أهل كل دائرة

بالأخرى. وهذا أمر لم أر أحدا سبقني إليه.»[7] فما هو موقف ابن خلدون من علم الكلام؟ وكيف كان ذلك الموقف أساسا لموقفه من التصوف؟

موقف ابن خلدون من علم الكلام:

خصّ ابن خلدون علم الكلام بفصل في "المقدمة" حدد فيه مفهومه وموضوعاته ومنهجه وأهم شخصياته ثم ضرورة وجوده، وخلص في الأخير إلى محاولة البرهنة على أن هذا العلم أصبح في عهده فاقدا لمبررات وجوده، بل وجوده في الأصل اضطراري فقط.

فلقد ضُبِط مفهوم علم الكلام في المقدمة بأنه: « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية و الرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. »[8] وفي موضع آخر من "مقدمته" قال ابن خلدون محددا منهج وموضوع علم الكلام فقال:« بالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك.»[9]

واضح من هذا التعريف النزعة السنية الأشعرية لابن خلدون والاعتقاد الجازم بصحة عقائد أصحابها، في مقابل خطأ عقائد مخالفيها وعدهم من المبتدعة الذين ما استحدث علم الكلام في الملة إلا لمواجهتهم وردهم إلى عقيدة أهل السنة والجماعة، مستعملين في ذلك وكما يبدو من التعريف المنهج العقلي، وبهذا المعنى يصبح خصوم الأشاعرة وحججهم ليست من علم الكلام بل هي عقائد مبتدعة يجب التخلي عنها.

ولقد أخذ ابن خلدون بتعريف الغزالي لعلم الكلام حتى كاد أن يكون بنفس العبارات، حيث جاء في تعريف الغزالي لعلم الكلام قوله:« «حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة.»[10] وما علماء الكلام إلا طائفة أنشأها الله

«وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله»[11] ولم يكن ابن خلدون السباق من المغاربة في الأخذ بتعريف الغزالي حرفيا لعلم الكلام فلقد ذهب ابن العربي الصوفي المذهب نفسه عندما تحدث عن مفهوم علم الكلام وعن ضرورة وجوده، وكيف تكفل علماء الأشعرية بالذود عن عقيدة التوحيد عقيدة أهل السنة والجماعة فقال:« «فمهما برز في ميدان المجادلة بدعي برز له أشعري، أو من كان من أصحاب النظر. ولم يقتصروا على السيف. رغبة منهم وحرصا على أن يردوا واحدا إلى الإيمان، والانتظام في سلك أمة محمد g بالبرهان. إذ الذي كان يأتي بالأمر المعجز على صدق دعواه، فقد فقد، وهو الرسول – عليه السلام.»[12] ويقول كذلك محددا مواضيع علم الكلام ومنهجه:«وعلماء هذا العلم رضي الله عنهم ما وضعوه وصنفوا فيه ما صنفوا ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، وإنما وضعوه إرداعا للخصوم،الذين جحدوا الإله أو الصفات، أو بعض الصفات، أو الرسالة، أو رسالة محمد g خاصة، أو حدوث العالم، أو إعادة إلى الجسام بعد الموت، أو الحشر والنشر، وما يتعلق بهذا الصنف... فطلب علماء الكلام إقامة الأدلة عليهم، على الطريقة التي زعموا أنها أدلتهم إلى إبطال ما ادعينا صحته خاصة. حتى لا يشوشوا على العوام عقائدهم.»[13]

من خلال تعريف ابن خلدون لعلم الكلام المأخوذ عن الغزالي و المتخذ لحجة الإسلام نموذجا عن العالم الموفق في الدفاع عن عقيدة السلف، لم يكتف من تضييق دائرة علم الكلام من حيث الموضوع والمنهج، بل ذهب إلى أنه علم ما كان ليكون بين المسلمين، لاعتماده وسيلة عاجزة على معرفة عقيدة التوحيد معرفة تامة، فهو غير ضروري، ومن الأفضل التخلي عنه باعتماد النص أو الكشف، لأن الكشف هو علم بالنص وممارسته سلوكا، أو هو أعلى درجات المسلم الذي أسلم وآمن وبلغ مقام الإحسان[14]. ويبدو هذا الرفض واضحا من خلال النقد المباشر لاستعمال العقل لبلوغ التوحيد باعتماد مبدأ العلية الأرسطي.

وللبرهنة على عجز العقل في الوصول إلى المراد من الاعتقاد الصحيح، قدم ابن خلدون مثالا على استعمال النظر في الحجاج على جوهر العقائد الإيمانية ضمن "علم التوحيد"، ومفاد ذلك أن الحوادث سواء ذوات أو أفعال بشرية أو حيوانية لها أسباب واقعة في مستقر العادة، وكل سبب هو أيضا حادث له سبب نتج عنه، حتى تنتهي السلسلة إلى مسبب الأسباب. والإنسان عاجز بما له من أدوات إدراك تتعلق بمحسوس أو مسموع وسائر المدركات التي لا تحيط بكل الأسباب ومسبباتها، خاصة وأن هذه الأسباب في من الظواهر الكثيرة بما يعجز الإنسان على حصرها وعدها، وفيها الأكثر مما لا يدرك حسا وهو في الغالب أحاسيس وتصورات متشعبة، فلا يحيط بالأسباب إلا خالقها، لهذا على الانسان إذا أراد البرهنة على التوحيد أن يلجأ إلى الإله الواحد مباشرة[15]. ولم يكتف ابن خلدون بالنهي على هذا الدليل الفلسفي بل حرمه ودعا إلى توحيد الله توحيدا مباشرا كما نص على ذلك الوحي، مستدلا بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ*اللهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ*﴾[16]

***

الهوامش:

[1] – يعدُّ "مالك بن نبي" "ابن خلدون" من أصحاب فكرة الدورة التاريخية، لكن بمصطلح الدولة لا مصطلح الحضارة، وفي هذا الصدد يقول عنه:«وأما ابن خلدون، فقد تمكن من قبل من اكتشاف منطق التاريخ مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق إذا لم نقل أنه قد قام بصياغته فعلا. فقد كان يمكن أن يكون أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية، لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ونعني به– الدولة– وليس عند الحضارة نفسها.»

– مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ضمن سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، بيروت لبنان، 1979، ص.62.

[2] - المرجع نفسه، ص 53.

[3]- ابـن خلـدون: مقدمـة ابـن خلـدون، دار الجيـل، بـيروت، د.ت. ص.517. ويورد النص نفسه القنوجي (صديق بن حسن) في: أبجـد العلـوم الوشـى المرقوم في أحوال العلوم، تحقيق، عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978م. ويورده كذلك المقري، وينسبه لأحد الصوفية دون أن تحديد لاسـم الجنيـد. —المقري التلمساني: نفح الطيب من غـصن الأنـدلس الرطيـب وذكـر وزيرهـا لـسان الدين بن الخطيب، تحقيق تحقيق إحـسان عبـاس،دار صـادر، بـيروت 1968م، ج5، ص286.

[4] - لقد ذهب الأستاذ أبو يعرب المرزوقـي إلى أن ابـن خلـدون لم يـصنف التصوف في "المقدمة" ضمن العلوم العقلية وهو بهذا المعنى جعله دخيلا عـلى العلـوم النقلية مثل الفلسفة، وكل هذا ليتماشى موقف ابـن خلـدون مـن التـصوف الـوارد في الشفاء مع ما جاء في المقدمة وليدل ذلك على يقينية نسبة كتاب الشفاء لابـن خلـدون. ولكن المتأمل في موقف ابن خلدون سواء في المقدمـة أو في الـشفاء لا يخـرج التـصوف من العلوم النقلية ولو أنه لم يورد في التصنيف العام في الفـصل المعنـون بــ:"أصـناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد" لأن المتأمل في الـسياق العـام للفـصول المواليـة يدرك بأن التصوف من العلوم النقلية عند ابن خلدون، ولأنـه لم يـورده أيـضا ضـمن العلوم العقلية، من جهة، ولإنه أورده بعد علم الكلام وقبل تعبير الرؤيا وكلاهما مـن العلوم الشرعية، من جهة أخرى. كما إنه وبالنظر إلى المنهج المتبع في العلمـين: الكـلام والتصوف، أليس علم الكلام أحق بنسبته إلى العلوم العقلية؟! خاصـة وأنـه محـدد في التعريف، ولو أنه غير منعدمٍ في التصوف.

- ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، مع دراسة تحليلية للعلاقة بـين السلطان الروحي والسلطان السياسي، لأبي يعرب المرزوقي، الدار العربيـة للكتـاب، 1991، ص 86.

[5]- يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965م، ج1ص ص 297-298.

[6] – هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي، زعم أن نسبه يمتد إلى محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، ينتمي إلى عائلة صوفية هاجرت إلى مصر . بنى له القاضي محي الدين زاوية كانت تنافس الأزهر في القرن العاشر، تخرج منها العديد من متصوفة القرن العاشر.

– طه عبد الباقي سرور: التصوف الإسلامي والإمام الشعراني، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة. 1981، ص ص 21،65.

[7] – الشعراني(عبد الوهاب): اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، وبهامشه كتاب الكبريت الأحمر، مطبعة عباس بن عبد السلام شقرون، مصر، 1351هـ/ 1932م.ص 2.

[8] – ابن خلدون (عبد الرحمن): مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط5، 1984، ص 458.

[9]- المصدر نفسه، ص 466.

[10] – الغزالي: المنقذ من الضلال، دراسة وتحقيق عبد الحليم محمود، دار المعارف، مصر، ط3، 1988، ص.336.

[11] – الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الكريم المراق، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984ص 38.

[12] – ابن العربي: الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحي، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، 1985،ج1، ص 157.

[13]-المرجع نفسه، ج1، ص ص 156-157.

[14]- شفاء السائل في تهذيب المسائل، تحقيق الطنجي، ص13.

[15]- المقدمة، ص ص 458-460

[16]- سورة الإخلاص.

الفهـــــــــرس

***

المصادر :

جريدة الأهرام
جريدة الأخبار
جريدة الجمهورية
جريدة المساء
جريدة المصري اليوم
جريدة اليوم السابع
***
كتاب الطريق إلى الله .. للدكتور / علي جمعة
***
موقع (إسلام أون لاين)
موقع (الدكتور علي جمعة)
موقع (المصري اليوم)
موقع (اليوم السابع)
***

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك ـ الأزهر
ت: ٠١٢٨٤٢١٤٢٨٥